مِنْهَجُ التَّغْيِيرِ

عِنْدَ الشَّهِيدَيْنِ

حَسَنُ البَنَّا وَسَيِّدُ قُطُب

الدُّكتور مُحمَّد عبد القَادِر أبو فارِس

بسم الله الرحمن الرحيم

مَنهجُ التَغييرِ

عند الشهيدين

حسن البنا وسيد قطب

• الكتاب: منهج التغيير عند الشهيدين حسن البنا وسيد قطب.

• الكاتب: محمد عبد القادر أبو فارس.

• الطبعة: الثانية 2001

• الناشر: دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا - دار عمار للنشر والتوزيع - عمان

• التوزيع: دار البشير للثقافة والعلوم طنطا 23 ش الجيش عمارة الشرق للتأمين.

تيلفاكس: 305538 - 321744 /040 ☎: 228277 - 210907 / 040

• التجهيز الفني: الندى للتجهيزات الفنية المحلة الكبرى ☎: 228277 / 040

• الإيداع القانوني: 14394 / 98.

• الترقيم الدولي: I.S.B.N .977.278.097.6

الإهداء

إلى روح حسن البنا الذي بنى الأجيال

إلى روح سيد الذي فقه طريق البنا فالتزمه وشرحه

إلى تلامذة البنا فوق كل أرض وتحت كل سماء

أهدي كتابي هذا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

قال رسول الله ﷺ: «ما من نبيٍّ بعثه اللهُ في أمة قبلي إلا كان له من أُمّته حَواريُّونَ وأصحابٌ، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنه تَخْلُفُ من بعدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فَمَنْ جاهدَهم بيدِهِ فهو مؤمنٌ، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمانِ حبةُ خردل». رواه مسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب].

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد،

فإن الباعث على كتابة هذه الورقات هو ما يجري على ألسنة

بعض الناس المُتَسرِّعينَ، من ابْتِسارٍ في الفهم لما كتبه الأستاذ الإمام الشهيد حسن البنا، وما كتبه الأستاذ الشهيد سيد قطب، رحمهما الله تعالى. وبخاصة علاقة الأستاذ سيد قطب وما كَتَبَ بمدرسةِ الأستاذ البنا، رحمه الله.

إن نفراً من هؤلاء يطرحون كلاماً، مفاده أن الأستاذ سيد مدرسةٌ، والأستاذ البنا مدرسة أخرى، بل إنهما مدرستان متناقضتان.

إن للأستاذ سيد منهجاً في التغيير، يُغاير منهج الأستاذ البنا، فسيدٌ، رحمه الله، واضح في تفكيره، واضح في نظرته للناس وللأنظمة والمجتمع، ويقولون: إن سيداً أَثَّرَتْ عليه السجونُ والمحنة، فأدت إلى تَشَدُّدِهِ وإلى نظرة سوداوية نحو المجتمع والأنظمة والحكومات، ولهذا يعتبرها جاهلية، ويرى استخدام القوة والعنف مع الناس ومع الأنظمة، كما يرى اعتزال الناس والمجتمعات الجاهلية.

بينما حسن البنا، في زعم هؤلاء، له منهج، يخالف هذا المنهج، ويخالف ما نسبوا إلى سيد من أقوال؛ فهو يرى الأنظمة القائمةَ إسلامية، وتطبق الإسلام، والحكامُ تخرجوا من مدرسة الإسلام، والأنظمة إسلامية، والحكومات إسلامية، والمجتمعات التي تحكم بغير ما أنزل الله مجتمعات إسلامية، والدساتير والقوانين المنبثقة عنها إسلامية، وهو لا يرى العُنْفَ والقسوة كما يرى الأستاذ سيد، رحمه الله.

ومن الحقِّ الذي لا غُلُوَّ فيه، أن هذا التفريق راعني، وآلمني ألماً

شديداً. آلمني لأنه زُهْدٌ في الرجال وفَقْد للأنصار، وراعني لأنه لم يعتمد على دراسة وموازنة والخروج بنتيجة، وإن الذين تفوّهوا بهذا الكلام، مِمَّنْ أعرفُ، لم يقرؤوا «الظلال» وكُتبَ سيد قطب، ولم يقرؤوا «الرسائل» للبنا، ولم يستوعبوها جيداً، ولا أقلّ من ذلك.

ومما راعني أيضاً، أن الذين يقولون بهذا، يترخّصون في كل شيء، ويحرصون على الحياة تحت عباءة الأنظمة التي ترفض تطبيق الشريعة الإسلامية. ويلهثون وراء الدنيا وأهلها، وفيهم شَغَفٌ شديد بالمراكز العليا والمناصب الراقية، ويجدون منهج سيد ومواقف سيد صعبة، لا يطيقونها، ولا يصبرون عليها. فينالون منه ومن منهجه، في حين أنهم لا ينالون من البنا ومنهجه، وبخاصة أن منهجه أكثر وضوحاً، كما سنرى، من منهج سيد، وأن مواقفه أوضح من مواقف سيد، فَقُتِلَ في أضخم شوارع القاهرة غِيلةً وغدراً، على يد ملكٍ فاسقٍ فاجر، هو الملك فاروق.

نعم، إنهم لا يقدرون على التطاول على الأستاذ البنا ومدرسته، لأنه المؤسس، إلا إذا قرروا ترك الجماعة والمدرسة، وتنكّروا لها، وهذا ما لا يرغبون فيه، لأنهم يعزلون أنفسهم عن جنود البنا، وما أكثرهم، وسيد قطب منهم، ولأنهم يُعطِّلون مصالحهم، ولا يستطيعون صعود السلم لتحقيق طموحاتهم، وإن شئت، فقلت: تعلقهم بالزعامة والرياسة ولعاعة الدنيا.

ولقد وجدتُ من قبيل الحِسْبة أن أكتب هذه الصفحات، لأبيّن لجميع الناس الحقيقة، وأوضح علاقة الشهيد سيد بمدرسة الشهيد حسن البنا، رحمهما الله تعالى، لعل الذين يجهلون، يتعلمون،

ولعل الذين خُدِعوا بأقوال الخادعين، أن يبصروا، ويدركوا الحقيقة.

على الرغم من أن كاتب هذه الأسطر، قد قرأ معظم الظلال وسائر كتب سيد، وبخاصة «معالم في الطريق» و«هذا الدين» و«المستقبل لهذا الدين» و«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» فإنه لم يجدْ ما وجدَ هؤلاء، ولم يتوصَّلْ إلى ما توصلَ إليه هؤلاء، فلم يعتزل المجتمع، ولم يعتزل الناس، ولم يُبِحْ دماء أحد من أبناء الشعب حتى ولو آذوه. ولم يطالب الناس بأن يعيشوا في كهوف، ويموتوا فيها.

ولقد رأى من الواجب عليه أن يُيَمِّمَ وجهه شَطْرَ ما كتبه سيد، رحمه الله، وإلى ما كتبه الأستاذ البنا، في «الرسائل» التي تضم فكر الإخوان الذي رسمه البنا، من حيث الأهداف العامة والخاصة، والموقف من الحكم، والموقف من الحكام، والموقف من الأنظمة الحاكمة، وإنْ كان يحفظُ كثيراً منها، عن ظهر قلبٍ، منذ نعومة أظفاره، لأنه رُبّي عليها. ورأى أن يكتب في هذا الموضوع، ويدرسه دراسة موضوعية، وأكثرَ من اقتباس النصوص للأستاذ البنا والأستاذ سيد قطب مُوضِّحاً الاتفاق الواَضح بينهما، في منهج التغيير.

وإن المؤلف ليرجو من القارىء الكريم، أن يقرأ ما كتب بتجرد وموضوعية، ودون مقررات عنده مقدماً، فيكون أسيراً لها، تُغْشيه عن رؤية الحق، وتُصِمّه عن سماعه، فإذا اقتنع بما انتهيت إليه، واتَّضحتْ له الصورة، واستقرَّ في رُوعه وحدةُ المنهاج في التغيير عند الشهيدين، انبرى يوضِّح هٰذا لمن يجهله.

وأخيراً وليس آخراً، إن المؤلف يذكّر القارىء الكريم بأن المؤمن مرآة أخيه، وأن العصمة لا تكون لغير الرسل من البشر، فقد تقع عينه على خلل، أو ثغرة في الكتاب، فيرجو أن يبادر القارىء الكريم إلى إسداء النصح والتوجيه. وله مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان، ومن الله العفو والغفران، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صويلح في
٢٦ ربيع الثاني ١٤١٧هـ
الموافق ٩/٩/١٩٩٦م.

الحكم على الأنظمة المعاصرة

يرى الأستاذ سيد، رحمه الله، أن هذه الأنظمة من مُخلَّفات الغزو الصليبي لبلاد المسلمين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وأن هذه الأنظمة قد ورثت عن أتاتورك وغيره استبعادَ الإسلام عن واقع الحياة، وأن هذه الأنظمة جاهلية، لأنها لا تُقِر لله بالحاكمية، وإنما تعتدي على سلطان الله، وتدّعي لنفسها الحاكمية، فما تُحِلُّه لنفسها فهو الحلال، وما تحرّمه لنفسها فهو الحرام. والجاهلية المعاصرة تجتمع فيها جميع صور الجاهلية التي تَحدَّثَ عنها القرآن، وهي جاهلية الحكم، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة]، وجاهلية التصور والاعتقاد، قال تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وفي هذا يقول الأستاذ سيد، رحمه الله: «إن العالَمَ اليوم يعيش في جاهلية، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها، هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخصِّ خصائص الألوهية، وهي الحاكمية، إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعلُ بعضَهم لبعضٍ أرباباً، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهليةُ الأولى، ولكن في صورة ادعاء حق وَضْعِ التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة

والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن به الله».
معالم في الطريق - الطبعة الشرعية الثامنة سنة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م
- دار الشروق - بيروت صفحة ١٠.

ولو عدنا إلى رسائل الإمام الشهيد وموقفه من الأنظمة والحكومات القائمة، نجد أن كلام سيد قد أخذ منه، بل كان أوضح من كلام سيد، فهو يقول:

«أين نحن من تعاليم الإسلام، كونوا صُرحاء في الجواب، وسترون الحقيقةَ واضحةً أمامكم، كل النُّظُم التي تسيرون عليها في شؤونكم الحيوية نُظُمٌ تقليدية بحتة، لا تتصل بالإسلام، ولا تستمدُّ منه، ولا تعتمد عليه، نظم الحكم الداخلي، ونظام العلاقة الدولية، ونظام القضاء.. الروحُ العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها، كُلُّ ذلك بعيدٌ عن الإسلام وتعاليم الإسلام» (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - الرسائل ٣٠٤). طبعة دار الأندلس سنة الطبع ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥ - بيروت.

أقول: إذا كان الإمام البنا، رحمه الله تعالى، يجزم بوضوح أن الأنظمةَ الحاكمة تحكمُ بغير ما أنزل الله، وتشرّع القوانين الوضعية التي تُحِلُّ ما حَرَّمَ الله ورسوله، فتبيح الزنا والربا والخمر والقمار، ويفتي لكل مسلم أن يتمرد عليها، ولا يخضع لها، بل يطيع الله ورسوله فيما شرعا - أنظمةٌ لا صلة لها بالإسلام، ولا تتصل به، ولا تستمد منه، ولا تعتمد عليه نظام الحكم الداخلي، ونظام العلاقات الدولية، ونظام القضاء، ونظام الدفاع والجندية، ونظام

المال للدولة والأفراد، ونظام الثقافة والتعليم، ونظام الأسرة والبيت، ونظام الفرد في سلوكه الخاص. الروح العام الذي يهيمن على الحكام والمحكومين، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها، كلُّ ذلك بعيد عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

وأقول: ما الوصفُ الشرعيُّ لأيِّ قانونٍ وتشريع ونظام، لا صلة له بالإسلام، ولا يستمد منه، ولا يعتمد عليه؟

إن مما لا شك فيه، أن أعْدَل وصفٍ وأدق وصفٍ يُوصف به ما وَصَفَهُ اللهُ في كتابه فقال: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة].

وهنا يلتقي الإمامان الشهيدان الإمام المؤسس الشهيد حسن البنا والإمام الداعية القائد الأخ الملتزم الشهيد سيد قطب.

ولقد علمت أخي القارىء! أن الشهيد سيد، رحمه الله، فسّر الجاهلية والمجتمع الجاهلي، بأنه المجتمع الذي لا يطبق أحكام الإسلام.

فهما يلتقيان في أن الأنظمة لا تطبق أحكام الإسلام، ومن ثَمَّ فهي جاهلية.

الموقف من الأنظمة الجاهلية، والحكومات الجاهلية

إن القارىء لما كتبه الشهيدان الإمام حسن البنا والأستاذ سيد قطب، رحمهما الله، يدرك بوضوح لا لبس فيه، أن الأستاذ سيد وشيخَه وإمامَه البنا، رحمهما الله، وسائر الإخوان، يرفضون هذه الأنظمة والحكومات التي تطبق غير الإسلام. التزاماً بفقه الإخوان وفهم الإخوان وبيعة الإخوان، فالأستاذ البنا، رحمه الله، يقول:

«ونحن لهذا لا نعترفُ بأيِّ نظام حكومي، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمَنَا أهلُ الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها» (رسالة إلى الشباب - مجموعة الرسائل ٤١٩).

وأما الحكام فيقول فيهم:

«وأنّى لحكامنا هذا، وهم جميعاً قد تربوا في أحضان الأجانب، ودانو بفكرتهم، على آثارهم يُهرعون، وفي مَرْضَاتهم يتنافسون، ولعلّنا لا نكونُ مبالغين إذا قلنا: إن الفكرة الاستقلالية في تصريف الشؤون والأعمال، لم تخطر ببالهم، فضلاً عن أن تكون منهاج عملهم، إنَّ قوماً فقدوا الإسلام في أنفسهم، وفي بيوتهم وشؤونهم الخاصة والعامة، لأعْجَز أن يفيضوه على غيرهم، ويتقدموا بدعوةٍ سواهم إليه، وفاقدُ الشيءِ لا يُعطيه، ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان، فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها، ولكنها

مهمة النشء الجديد» (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن مجموعة الرسائل ٢١٨-٢١٩).

وأجدُ من الواجب عليّ أن أنقل كلام الأستاذ البنا، رحمه الله، الذي وَضَّحَ موقف الإخوان المسلمين من الحكومات المصرية المتتابعة فيقول:

«وكلمةٌ لا بد أن نقولها، في هذا الموقف، هي أن الإخوان المسلمين لم يروا في حكومةٍ من الحكومات التي عاصروها - لا الحكومة القائمة، ولا الحكومة السابقة، ولا غيرها من الحكومات - مَنْ ينهضُ بهذا العبء، أو مَنْ يُبدي الاستعدادَ الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية، فلْتَعْلم الأمة بذلك، ولْتُطالب حكامها بحقوقها الإسلامية، ولْيَعمل الإخوان المسلمون.

وكلمة ثانية: إنه ليس أعمق في الخطأ من ظَنِّ الناس أن الإخوان المسلمين كانوا في أيِّ عهد من عهود دعوتهم مطيّةً لحكومة من الحكومات، أو منفّذين لغاية غير غايتهم، أو عاملين على منهاج غير منهاجهم، فليعلم ذلك مَنْ لم يكن يعلمه مِن الإخوان وغير الإخوان» (المؤتمر الخامس - مجموعة الرسائل ٢٧٣).

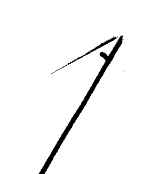
وهنا أجدُ من الواجب عليّ أن أقول: إن الذين ينتسبون إلى الإخوان، ويدّعون أنهم جزء من الأنظمة الجاهلية، ومِن ثوابتهم المحافظةُ على هذه الأنظمة الجاهلية، ويرضون لأنفسهم أن يكونوا مطيةً لهذه الأنظمة، يمدحونها، ويمدحون طواغيتها، ويواصلونهم إلى درجة أنهم لا يُسألون عما يفعلون، وأن انتقادَهم تَجاوُزٌ للحط

الأحمر، ليسوا من الإخوان المسلمين، ونقضوا البيعةَ التي في أعناقهم، وخالفوا بوضوح استراتيجية الجماعة التي رسمها مؤسسها البنا، وأجْمَع عليها مَنْ بعده من الأئمة والمرشدين.

تأمَّلْ قوله رحمه الله: إنه ليس أعمق في الخطأ من ظَنِّ بعضِ الناس، أن الإخوان المسلمين كانوا في أي عهد من عهود دعوتهم مطية لحكومة من الحكومات، أو منفذين لغاية غيرِ غايتهم، أو عاملين على منهاج غير منهاجهم.

وبعد هذا نسمعُ صيحاتٍ مُنْكَرة، من نفوس مريضة مشبوهة، أنهم جزء من نظام طاغوتي، من ثوابتهم المحافظةُ عليه، فهذا يزيدُ عن مرتبةِ المطية إلى مرتبةِ السدانة والانحراف.

أما الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، فلا يزيد على اعتبار الأنظمة التي تستبعدُ شرعَ الله، أنظمةً جاهلية، لا تَعايشَ معها، ولا لقاء معها، ولا تنازل عن شيء من أمور الدين والعقيدة، ولا مداهنتها، بل يجب إعلان الحرب عليها وتغييرها، ومفاصلتها، واعتزالها شعورياً، أي كُرْهُها والبراءةُ منها، والولاء لله ولرسوله والذين آمنوا.



تغيير هذه الأنظمة الجاهلية، لا ترقيعها

إن الذي يدرس بعمق رسائل الإمام الشهيد التي تتضمن أهدافَ الجماعة وغايتها ووسائلها ومراحلها ومنهاجها وحلولها لأي مشكلة، على ضوء الإسلام، والذي يدرس أيضاً كتب الأستاذ الشهيد سيد، رحمه الله، وبخاصة «المعالم»، «وفي ظلال القرآن»، يجد أن الإمامين الشهيدين اتفقا على استراتيجية وتكتيك، أما الاستراتيجية فهو العملُ الدائب لتغيير هذه الأنظمة الجاهلية، وأما التكتيك فهو محاربة المنكرات الجزئية والعادات غير الإسلامية، وربط تلك المنكرات من قوانين جاهلية وقيم جاهلية بغياب شرع الله عن الحكم، وتوجيه جُلّ اهتمامهم إلى ضرورة تغيير هذه الأنظمة، مهما كانت النتائج، ولا شك أنها نتائج مؤلمة، ولكن لا بد مما ليس منه بد، ولأن هذا هو الطريق، ولا طريق سواه.

فالاثنان كانت استراتيجيتهما التغيير الجذري للأنظمة، بعد توعية الأمة بالإسلام، وتكوين قاعدة شعبية تقبله، وتحافظ على مكتسباته ودولته.

وهما أيضاً لا يحاربان الإصلاحات الجزئية شريطة ألّا تتحوّلَ إلى استراتيجية، فينشغل الناس بها عن استراتيجية التغيير، فتصبح الوسيلة غاية، والتكتيك استراتيجية، وهذا هو الانحراف.

وهذا ما يدل عليه كلام الأستاذ البنا، حينما تحدث عن الاستراتيجية إزاء هذه الأنظمة التي لا صلة لها بالإسلام، ولا تستمد منه. فقال: لا يصلح فيها الترقيعُ الإداري والروتين الحكومي، كما سنرى ذلك بعد أسطر من هذا العنوان، وهو نفس الموقف الذي نفهمه من سيد، إنه لا يريد أن يقتصر العملُ الإسلامي على مثل هذه الوسائل الفرعية والأعمال التكتيكية. وتُغفل استراتيجية التغيير الجذري من التخطيط العميق والتنفيذ الدقيق والعمل المتواصل، حتى يتحقق التغييرُ الجذريُّ الشامل.

وهما يريدان معاً أيضاً ألاّ يؤخذ بجزء من الإسلام، ويُكتفى بتطبيقه والرضا به، كالأحوالِ الشخصية مثلاً، وتَرْك نظام العقوبات ونظام الأخلاق ونظام العبادات ونظام المعاملات ونظام العلاقات الدولية، وسائر السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. بل إن الترقيع هنا، والاكتفاء به انحرافٌ خطير، وشذوذٌ عن حكم القرآن، ومَنْ شذّ شذ في النار، إنه لا تنازل عن شيء من الإسلام، وإلاّ فهو الانحرافُ الذي يخلد صاحبه في النار، ويشقيه في الآخرة والأولى.

ولقد كان الإمام الأستاذ البنا واضحاً كل الوضوح، حين حدد ذلك بقوله:

«وهكذا اتصل الإخوان بكتاب الله، واستلهموه، واسترشدوه، فأيقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكليّ الشامل، وأنه يجب أن يُهيمنَ على كل شؤون الحياة، وأن تصْطَبِغَ جميعُها به، وأن تَنزلَ على حُكْمِهِ، وأنْ تسايرَ قواعده وتعاليمه، وتستمدَّ منها، ما دامت

الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاماً صحيحاً، أما إذا أسلمت في عبادتها، وقلدت غير المسلمين في بقية شؤونها، فهي أمةٌ ناقصةُ الإسلام، تضاهي الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة] (من رسالة المؤتمر الخامس ـ مجموعة الرسائل ص٢٤٦).

هذا ويحدد الأستاذ سيد، رحمه الله، بوضوحٍ الموقفَ من هذه الأنظمة الجاهلية، ويرى تغييرها جَذْرياً، وأن الاكتفاء بترقيعها، والانشغالَ بجزئيات عن الأصل، وهو التغيير، لا يصلح مطلقاً، بل هو انحراف عن المنهج الإسلامي، ويرى أن المنهج الإسلامي يرفض التعايش مع الجاهلية، والالتقاء معها في منتصف الطريق.

قال رحمه الله: «ليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان.. لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولنْ تكونَ هذه وظيفته اليوم، ولا في المستقبل، فالجاهليةُ هي الجاهلية، الجاهلية هي الانحرافُ عن العبودية لله وحده، وعن المنهج الإلهي في الحياة، والإسلام وظيفتُه هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام» (معالم في الطريق ١٦٣).

وقال رحمه الله: «إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة عن هذا التصور، فإما إسلامٌ وإما جاهلية، وليس هنالك وضع آخر، نِصْفُه إسلام، ونصفه جاهلية، يقبله الإسلام، ويرضاه، فنظرةُ

الإسلام واضحة في أن الحق واحد، لا يتعدد، وأن ما عدا هذا الحق فهو الضلال، وهما غير قابلين للتلبُّس والامتزاج، وأنه إما حكمُ الله، وإما حكمُ الجاهلية، والآياتُ القرآنية في هذا المعنى متواترة كثيرة ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة] (معالم في الطريق ١٦٤-١٦٥).

وقال رحمه الله: «وظيفة الإسلام إذن هي إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص».

وهذه الجاهلية خبُثت قديماً، وخبُثت حديثاً.. يختلف خُبْثُها في مظهره وشكله، ولكنه واحد في مغرسه وأصله، إنه هوى البشر الجُهَّال المغرضين، الذين لا يملكون التخلص من جهلهم وغرضهم، ومصلحة أفراد منهم جميعاً أو طبقات أو أمم أو أجناس، يغلبونها عن العدل والحق والخير، حتى تجيء شريعة الله، فتنسخ هذا كله، وتشرع للناس جميعاً تشريعاً، لا يَشُوبهُ جهلُ البشر، ولا يُلَوِّنه هواهم، ولا تميل به مصلحة فريق منهم.

ولأن هذا هو الفارق الأصيل بين طبيعة منهج الله ومنهج الناس، فإنه يستحيل الالتقاء بينهما في نظام واحد، ويستحيل تلفيق منهج، نصفُه هنا ونصفُه هناك، وكما أن الله لا يغفر أن يُشْرَك به، فكذلك هو لا يقبل منهجاً مع منهجه» (المعالم ص١٦٦).

«وظيفةُ العصبة المؤمنة أن تجاهد اليوم، لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض، وفي حياة الناس» (الظلال ص١٤٩٧).

إن هذا الدين لا يعترف ابتداءً بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية، ولا يرضى ببقائها، ومن ثَمّ فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجتها الناشئة من جاهليتها، ولا بتلبيتها كذلك.

وهذا المنهج التغييري الواضح قد سبقه إليه إمامه ومرشده الأستاذ حسن البنا، رحمه الله، وقد أعلن عن هذا في رسائله، وبخاصة «المؤتمر الخامس» و«رسالة إلى الشباب» و«الإخوان المسلمون تحت راية القرآن» و«مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي».

فهو يرفض صراحةً الترقيع الإداري والروتين الحكومي في هذه المجتمعات الفاسدة، ولهذا يقول رحمه الله:

«وفي مثل هذه الحال، لا يُجْدي في الإنقاذ الترقيعُ الإداري ولا الروتين الحكومي.. ويختم كلامه بآية التغيير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]. (انظر مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي - مجموعة الرسائل ٣٣٤-٣٣٥).

ويحدثنا الإمام، رحمه الله، عن الوضع التشريعي القائم على غير شرع الله، فيقول:

«فمن غير المفهوم ولا المعقول أن يكون القانون في أمة إسلامية متناقضاً مع تعاليم دينها، وأحكام قرآنها وسنة نبيها، مصطدماً كُلَّ الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله، وقد حذر الله نبيه ورسوله فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٤٩﴾﴾.. ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ . . ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

وإذا كان اللهُ ورسوله قد حَرَّما الزنا، وحظَرا الربا، ومنعا الخمر، وحاربا الميسر، وجاء القانون يحمي الزانية والزاني، ويلزم بالربا، ويبيح الخمر، وينظم القمار، فكيف يكون موقف المسلم بينهما، أيطيعُ اللهَ ورسوله، ويَعصي الحكومةَ وقانونها، واللهُ خيرٌ وأبقى؟! أم يَعصي اللهَ ورسولَهُ، ويطيع الحكومة، فيشقى في الآخرة والأولى؟

أما الإخوان المسلمون فهم لا يوافقون على هذا القانون أبداً، ولا يرضونه بحال، وسيعملون بكل سبيل على أنْ يحلَّ مكانه التشريع الإسلامي العادل الفاضل» (المؤتمر الخامس - مجموعة الرسائل ٢٧٧-٢٧٨).

ويحدثنا الإمام البنا عن مهمة الإخوان، بالتفصيل، فيقول:

«إن مهمتنا في بعض تفاصيلها، أن يكون في مصر أولاً، بِحُكْمِ أنها في المقدمة، ثم في غيرها كذلك:

- نظام داخلي للحكم، يتحقق به قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة].

- ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾

[البقرة].

- ونظام عملي للقضاء، يستمد من الآية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

- ونظام للدفاع والجندية؛ يحقق مرمى النفير العام: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة].

- ونظام اقتصادي استقلالي، للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴿٥﴾ ﴾ [النساء].

- ونظام للفرد في سلوكه الخاص، يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس].

- وروح عام يهيمنُ على كل فرد من أفراد الأمة، من حاكم ومحكوم، قوامهُ قولُ الله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص].

ويختم قوله، فيقول:

«نحن نريد الفردَ المسلم، والبيتَ المسلم، والشعب المسلم، والحكومةَ المسلمة، والدولة التي تقود الدول الإسلامية، وتضم شَتاتَ المسلمين، وتستعيد مجدهم، وتَردُّ عليهم أرضَهم المفقودة، وأوطانهم المسلوبة، وبلادهم المغصوبة، ثم تحملُ علمَ الجهاد

ولواء الدعوة إلى الله، حتى تسعد العالم بتعاليم الإسلام» (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - مجموعة الرسائل ٣٠٩-٣١١).

استخدام القوة

يؤكد الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، على ضرورة التغيير بالقوة، وأن يكون هذا التغييرُ بعد مرحلةِ تعريف الناس بالإسلام، ودعوتهم إليه، وتربيتهم عليه، وتكوين القاعدة الإسلامية الصلبة ونواتها التجمع العضوي الحركي.

وقد أكَّد هذا المعنى في أكثر من موقف، وبخاصة في «الظلال»:

«إن الإسلام، كما قلنا، إعلانٌ عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، فهو يهدفُ إلى إزالةِ الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكميةِ البشرِ للبشر وعبودية الإنسان للإنسان» (الظلال ٩/ ١٤٣٥).

ويبين الأستاذ، رحمه الله، كيفية إزالة الأنظمة والحكومات الجاهلية، فيقول: «ومن ثَمّ لم يكن بُدٌّ للإسلام أن ينطلق في الأرض، لإزالة الواقع المخالف لذلك الإعلان العام بالبيان وبالحركة مجتمعين، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تُعَبِّدُ الناسَ لغيرِ الله، أي تَحكمُهم بغير شريعة الله وسلطانه..» (الظلال ٩/ ١٤٣٥).

إن بعض الناس، مما يُؤْسَفُ له، لم يدركوا، ولم يفهموا كلام الشهيد سيد قطب، رحمه الله، وهو يحدثهم عن القوة واستخدامها، من وجهة النظر الشرعي وما ينبثق عنه من فقه حركي، فَقوَّلُوه ما لَمْ

يَقُلْ، وحَمَّلُوا كلامه ما لا يحتمله، بل قد صرح، رحمه الله، بخلافِ فَهْمِهم السقيم.

وكان جديراً بهؤلاء أن يقرؤوا بدقة ما كتب، وأن يتأملوا بعمق كتابه «في ظلال القرآن» وبخاصة آخر ما كتب فيه. لا أن ينسبوا إليه استباحةَ دماء الأطفالِ والنساء والشيوخ والشباب. وأقول أيضاً:

إن الأستاذ سيد، رحمه الله، يعالج حالتين:

الحالة الأولى: وجود أفراد ضالين منحرفين عن الإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً وقيماً وسلوكاً، في أنفسهم، وفي علاقاتهم مع الآخرين، في بيعهم وشرائهم وأخذهم وعطائهم، وفي سائر أنواع التصرفات القولية والفعلية.

الحالة الثانية: وجود سلطة تحكم، وهذه السلطةُ لا تحكم بشرع الله، وترفضُ أن تحكم بشرع الله، وتحاربُ كلَّ مَنْ يريد تطبيق شرع الله ويعمل له، بل وتمنع بالقوة، وتسن القوانين لمحاكمة العاملين لاستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الطواغيت.

أما الحالة الأولى: فيرى رحمه الله، أن هؤلاء الأفراد، يجب ألاّ يُعْتَدى على حياتهم، بل ولا توجيه كلمة نابية لهم، وإنما الموقف من انحرافهم وضلالهم هو في مخاطبتهم بالحسنى لإرشادهم إلى الحق، وإقناعهم به، وتنويرهم حتى يثوبوا إلى رشدهم.

وأما الحالة الثانية: فيرى أن الموقف من الأنظمة الجاهلية المستبدة التي تمنع تطبيق شرع الله، وتعادي الدعاة بما لديها من

سلطان وقوة، ينبغي أن تكون وسيلة التغيير والتصدي، في مثل هذه الحالة، استخدامَ القوة، لأنه تعلم من مرشده، رحمه الله، القول الذي كان يكرره: القوة أضْمَنُ طريقٍ لإحقاق الحق. وما أجمل أن تسيرَ القوةُ والحق جنباً إلى جنب. ولأن طبيعة الإسلام توجب على أتباعه أن يواجهوا الفكرة بالفكرة، ويقدّموا الأدلة الساطعة والحجج الدامغة على صواب فكرتهم، وهو لا يوقفهم عند هذا الحد، بل يوجب عليهم أن يواجهوا القوة بالقوة، أن كانوا قادرين عليها، وأن يُعِدّوا أنفسهم للحصول عليها والوصول إليها، إن كانوا غير قادرين عليها. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال].

يقول رحمه الله: «كلا والله: إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح، ولا بد لهذا الدين من أهل، يبذلون جهدهم لرد الناس إليه.. ويرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها. لا بد من جهدٍ بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة، وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس، هي التي تَصُدُّهم عن الهدى، وتعطّل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم» (في ظلال القرآن ٧/ ٩٩٢-٩٩٣).

ويقول في موضع آخر: «وقيامُ مملكة الله في الأرض وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي غاصبيه، من العباد، وردّه إلى الله وحده، وسيادة الشريعة وحدها، وإلغاء القوانين البشرية، كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسرَ عملَ

الرُّسل في إقرارِ دين الله في الأرض، وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل وتاريخ الدين على مر الأجيال» (الظلال ١٤٣٤).

ويؤكد، رحمه الله، أن على الدعاة ألاّ يخجلوا من إعلان هدفهم الأخير، وهو: «تحطيم كل القوى التي تقف في سبيل الإسلام، لإطلاق الحرية للناس» (الظلال ١٥٨٢).

ويرى الأستاذ سيد، رحمه الله، أن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله من مُستلزمات الإيمان، ويرى أن المؤمن يلزمه أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين، حتى يتسلَّمه رجالٌ ذوو صلاح، ممن يتقون الله، ويرجون حسابه.

وهذا الكلامُ وكلامُ البنا مأخوذٌ من مشكاة واحدة، هي مشكاة الإسلام، فتراه بوضوح يحدثنا عن القوة واستخدامها، فهو يقول: «إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية، حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة، سيكونون شُرَفاء صُرَحاء، وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك، ويقدمون في كرامة وعزة» (المؤتمر الخامس - الرسائل ٢٧٢).

وقال رحمه الله: «إن قعود الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة، لا يُكَفِّرُها إلاّ النهوضُ واستخلاصُ قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يَدِينُونَ بأحكامِ الإسلام الحنيف» (المؤتمر الخامس - الرسائل ٢٧٢).

وقال رحمه الله: «إن الحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كلِّ حكومة، لا تنفذُ أوامر الله» (المؤتمر الخامس - الرسائل ٢٧٣).

وقد حدد موقف الإخوان من كل حكومة، تتمرد على أمر الله: «فإذا قصرت، فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق» (رسالة التعليم ص١٢).

ولقد شرح الأستاذ البنا المقصود بالقوة ومراحلها، فبين أنها قوة الإيمان، ثم قوة الوحدة والارتباط، ثم قوة العضُد والسلاح.

وسيلة التغيير

يرى الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، أن التغيير ينبغي أن يكون عن طريق تكوين تنظيم ناجح، يتنامى هذا التنظيم، ويزداد قوة وانتشاراً حتى يكون قاعدة إسلامية صلبة قادرة على التغيير الشامل للأنظمة الجاهلية، قال رحمه الله: «وهذا يقتضي عملية بعث في الرقعة الإسلامية، هذا البعث الذي يتبعه تَسَلُّم القيادة البشرية، إنه لا بد من طليعة تعزِم هذه العَزْمَة، وتمضي في الطريق، تمضي في خِضَم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعاً» (معالم في الطريق ص١١).

إن الذي يقرأ «الظلال» و«المعالم»، يجد أنّ الأستاذ سيد، رحمه الله تعالى، يطلق على التنظيم «الجماعة المسلمة» وأحياناً «العصبة المسلمة» وأحياناً «طلائع البعث الإسلامي» وأحياناً «الطليعة المؤمنة» وأحياناً «التجمع الحركي العضوي» فكما أن الجاهلية تُواجِهُ من خلال تَجَمُّعٍ حركي، فلا بد أن تُواجَهَ من خلالِ تجمعٍ حركي.

وقد كرر الحديث عن هذا في أكثر من موطن في «المعالم» و«الظلال» قال رحمه الله:

«ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية،

وردّ الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز - ولا يجدي شيئاً أن تتمثل في نظرية مجردة، فإنها حينئذٍ لا تكونُ مكافئةً للجاهلية القائمة فعلاً، والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلاً على أن تكون متفوقةً عليها، كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل، لإقامة وجودٍ آخر، يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه، وفي كليّاته وجزئيّاته، لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمعٍ عضويٍّ حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقته ووشائجه، من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلاً» (في ظلال القرآن ١٠/١٥٥٦).

وقال رحمه الله:

«هذا المنهج الإلهي، الذي يمثله «الإسلام» في صورته النهائية، كما جاء بها محمد، ﷺ، لا يتحقق في الأرض، وفي دنيا الناس، بمجرد تَنزُّله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب. إنما يتحقق بأنْ تحمله جماعةٌ من البشر، تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم كذلك: وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك.. تجاهد الضعفَ البشريَّ والهوى البشري في داخل النفوس، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى.. وتبلغ - بعد ذلك كله - مِنْ تحقيق هذا المنهج، إلى الحد الذي تُطيقه فطرةُ البشر، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي، على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فِعلاً، ولا تغفل واقعهم، ومقتضياته في سيرِ

وتتابُع مراحل هذا المنهج الإلهي.. ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة، وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة.. بقدر ما تبذل من الجهد، وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال، وقبل كل شيء.. بمقدار ما تُمثِّلُ في ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته تَرْجَمَة عملية في واقعها وسلوكها الذاتي.

هذه طبيعة هذا الدين وطريقته. وهذه هي خطته الحركية ووسيلته.. وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يُعلِّمها للجماعة المسلمة، وهو يقول لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت] (هذا الدين ص٩-١٠).

أما الأستاذ البنا، رحمه الله، فقد أسس جماعة الإخوان المسلمين إيماناً منه أن التغيير لا يكون إلا بإنشاء جماعة منظمة، لها أهدافها التغييرية الواضحة، ولها مراحلها، ولها وسائلها، ولها منهاجها، ولها خصائصها، ولها مواردها المالية ونفقاتها، ولها وسائلها التربوية المتكاملة روحياً وفكرياً وجسدياً.

ولقد أعلن، رحمه الله، بوضوحٍ أن للإخوان المسلمين هدفين عامين، هما: تحرير العالم الإسلامي من أي نِير أجنبي، وإقامة دولة إسلامية، تحكم بشريعة الإسلام فيه.

وحدد علاقة القيادة بالقاعدة وفق بَيْعَة، حدد أركانها في عشرة أركان، والقاعدة تبايع القيادة على تحقيق هذه الأركان، والالتزام

بها، ومنها العمل لإصلاح الفرد والأسرة والشعب وإفراز الحكومة الإسلامية، ومِن ثم إقامة الدولة الإسلامية العالمية التي تشمل العالم كله في الخاتمة ونهاية المطاف.

ولقد أعجب الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، بالبنا، أيّما إعجاب، فهو كما قال سيد، رحمه الله، له من اسمهِ نصيبٌ، بنّاء، قام ببناء تنظيم قويٍّ وبناء نفوس وأجيال، ولقد راق للأستاذ سيد، رحمه الله، منهج الإمام البنا، رحمه الله، فانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين التي أنشأها الأستاذ البنا، وكان قائدها حتى استشهاده، وكان سيد، رحمه الله، ثمرةً من ثمار هذه الجماعة، وجندياً من جنودها، ثم أصبح قائداً من قادتها، وأخيراً تولى مهمة خطيرة، وهي إحياء تنظيم الإخوان المسلمين، بعد أن ألْغت الحكومة المصرية الجماعة، وصادرت أموالها. وحُوكم محاكمة عسكرية بتهمة إحياء تنظيم الجماعة المحظور، وإقامة الدولة الإسلامية بالقوة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجزي الإمام البنا والأستاذ سيد قطب عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

مراحل التغيير

لقد استنبط الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، مراحل التغيير والتحرير من كتاب الله، تبارك وتعالى، ومن خلال تحليل القصص القرآني للأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتهم سيد ولد آدم، عليه الصلاة والسلام.

وتلخص مراحل الدعوة والتغيير في أربع مراحل:

مرحلة الدعوة وتكثير الأنصار.

مرحلة الابتلاء للدعاة والأتباع، وهذا الابتلاء له صُوَرُه المتعددة، من تعذيب، ومطاردة، وسجن، ومقاطعة، ومن حرب، ومن إشاعة للحملات الكاذبة والظالمة.

مرحلة الصبر: في هذه المرحلة يواجه الابتلاء، على قسوته، بالثبات والصبر.

مرحلة النصر: وفي هذه المرحلة، الخاتمة تكون بعد الصبر، والصبر الذي حدث على الابتلاء، الابتلاء الذي نتج عن تبليغ الدعوة.

إنها كلمات أربع: دعوة، ثم ابتلاء، ثم صبر، ثم نصر.

ويؤكد الأستاذ سيد أنه لا نصرَ إلا بعد صبرٍ، ولا صبرَ إلا بعد ابتلاء، ولا ابتلاءَ إلا بعد دعوة واضحة صريحة.

وهذه المراحل، لخصها الإمام الشهيد، رحمه الله، في ثلاث مراحل:

التعريف: والتعريف يكون بدعوة الناس إلى الإسلام، وتعليمهم إياه، وإرشادهم إلى سعادتهم.. ووسائلهُ متعددةٌ ومتطورة.

التكوين: تربية العناصر على الثبات والصبر أمام الابتلاء.

والتنفيذ: مرحلة النصر والتمكين، بعد استكمال التعريف والتكوين.

جيل التغيير

يتحدث الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، في «المعالم» عن الصحابة، هذا الجيل القرآني الفريد الذي غَيَّر مجرى التاريخ، وحرر البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كان يتلقى القرآن، ويتكيف معه، يتعلم أحكامه، ويعمل به.

كان جيلاً يتصف بالإخلاص والجهاد والبذل والتضحية والثبات والصبر وسائر الصفات الأخرى التي جاء بها القرآن، ليربي الصحابة وغيرهم.

لم يكن هذا الجيلُ يتلقَّى القرآنَ، بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، وليُفاخر به الأقران، وينال به أوسمة أو نياشين، ويتصدّر المجالس، وإنما كان يتلقى القرآن، كما يقول سيد قطب، رحمه الله، ليتلقى أمرَ الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته.

يتلقى ذلك الأمر، ليعمل به تلقي الجندي في ميدان المعركة أمرَ القائد، ليعمل به على الفور.

إن هذا الجيل كان يتلقى القرآن، للتنفيذ والعمل، وينسلخ من كل ولاءٍ للقيادة الجاهلية، ويعلن ولاءه للقيادة المسلمة، بعد أن

يعلن براءته من كل روابط الجاهلية؛ ومن ثَمّ لتغيير الواقع الجاهلي وتقويضه، وإقامة النظام الإسلامي بعد ذلك.

والحركةُ الإسلامية اليوم مدعوةٌ لتلقي القرآن الكريم كما تلقّاه صحابةُ رسول الله، ﷺ، تلقّي الآخذ برغبة، والمنفذ برغبة لا تقل عن رغبته في الأخذ والسماع.

والحركة الإسلامية اليوم مدعوّة، لتربية جيل التغيير، كما رباه الرسول، ﷺ، أن تُعَلِّمَهُ القرآنَ وحبَّ القرآن والعملَ بما جاء في القرآن والجهاد من أجل نشر راية الإسلام، يتلقى القرآن عِلماً وعملاً وولاءً لله ولرسوله وللمؤمنين، وبراءة من أعداء الله، وإعداده في فترة الحضانة والتكوين ليتجرد من كل مؤثرات الجاهلية، بأفكارها المنحرفة، وأخلاقها الفاسدة ليلتزم بالأحكام الشرعية، ويدعو غيره لذلك، ويسعى جاهداً لتغيير الأنظمة الجاهلية.

نعم! يجب أولاً أن يتضلّع من القرآن الكريم وسنة الرسول، ﷺ، والفقه الإسلامي، وسائر علوم الشريعة ما يحصنه، ثم ليَدرسْ ما شاء، ولْيطّلع على ما يشاء، ويقرأ ما يشاء، وحينئذ تكونُ دراسته دراسةَ الناقدِ لما عند الآخرين من ثقافة، لا دراسةَ الآخذِ، يعرض ما يقرؤه على ما عنده من علم وفقه شرعي، فيرد ويأخذ وفق المقياس الشرعي، لكن ينبغي ألاّ يشغله شيءٌ عن العمل، لاستئناف الحياة الإسلامية، والقضاء على الأنظمة الجاهلية، فإن هذا غايته في الوجود أنْ تكون الحاكميةُ لله، وليس لأحد سواه، أن يؤلّه الله في نفسه وفي المجتمع والدولة وسائر مجالات الحياة (انظر معالم في الطريق - جيل قرآني فريد ص١٤-٢٣).

أما الأستاذ البنا مؤسس هذه الجماعة وواضع منهاجها التربوي والحركي والتنظيمي، فقد حدد جيل التغيير بوضوح، فتحدث عن صفاته ومؤهلاته. فهو جيلٌ فاهمٌ لإسلامه عاملٌ به مجاهدٌ في سبيله، شديد الإخلاص في هذا الجهاد. وهذا هو جيل النصر والتغيير، حدّث عنه الإخوان في المؤتمر الخامس، ليُعدوه إعداداً متكاملاً حتى يقترب البنا من مرحلة التغيير والتي سماها الخطوة التنفيذية.

وإذا ما تأملتَ هذه الأوصاف، تجدها تقترب من أوصاف جيل الصحابة، رضوان الله عليهم الذي ركز عليه الأستاذ سيد، فوصفه بالجيل القرآني الفريد، فكانوا جيل التغيير..

قال الأستاذ البنا، رحمه الله، يحدثنا عن هذا الجيل:

(نحن هنا في مؤتمر، أعتبره مؤتمراً عائلياً، يضم أسرة الإخوان المسلمين، وأريد أن أكون صريحاً معكم للغاية، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة. إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطىء، يَسهلُ على كثير أن يتخيَّلُوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال، يستطاع تصريره أقوالاً باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا، ولكنّ قليلين من هذا الكثير يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا، ولكن قليلاً منهم يقدرون على حملِ أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف، وهؤلاء المجاهدون، وهم الصفوة القلائل من الأنصار، قد يخطئون الطريقَ، ولا يصيبون الهدف، إن لم تتداركهم عنايةُ الله، وفي قصة

طالوتَ بيانٌ لما أقول - فأَعِدُّوا أنفسكم، وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختيار الدقيق، وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها، الشاقّ عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها، وفي الوقت الذي يكون فيه منكم - معشرَ الإخوان المسلمين - ثلاث مئة كتيبة، قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأنْ أخوضَ بكم لجاجَ البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كلَّ عنيدٍ جبار، فإني فاعلٌ إن شاء الله، وصدق رسول الله القائل: «ولن يُغْلَبَ اثنا عشر ألفاً من قِلَّة».

إني أقدّر لذلك وقتاً، ليس طويلاً، بعد توفيق الله، واستمداد معونته، وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشرَ نواب الإخوان ومندوبيهم أن تقصّروا هذا الأجل، إذا بذلتم همتكم، وضاعفتم جهدكم، وقد تُهملون، فيخطىء هذا الحساب، وتختلف النتائج المترتبة عليه، فأشعروا أنفسَكم العبءَ، وألّفوا الكتائبَ، وكَونوا الفرق، وأقبِلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب، وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تَصِلْ إليها بعد، ولا تضيّعوا دقيقة بغير عمل.

وقد يظن مَنْ يسمع هذا، أن الإخوان المسلمين قليلٌ عددهم، أو ضعيف مجهودهم، ولستُ إلى هذا أقصد، وليس هذا هو مفهوم كلامي، فالإخوان المسلمون، والحمد لله، كثيرون. وإنَّ جماعةً مَثّلها في هذا الاجتماع آلاف من أعضائها، كل منهم ينوب عن

شعبة كاملة، لأكثرُ مِنْ أنْ يُستقلَّ عددها، أو يُنسى مجهودها، أو يُغْمَط حقها، ولكن أقصد إلى ما ذكرت أولاً، من أن رَجُلَ القولِ غيرُ رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المُنْتج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقلّ التضحيات).

أهمية بناء الأسرة في التغيير

إن الأستاذ، رحمه الله، يبرز أهمية الأسرة في الدعوة والتغيير، ويعتبر بناء الأسرة المسلمة والبيت المسلم من أهم واجبات الداعية، ويعتبر البيت المسلم النواة للمجتمع الإسلامي.

وهو يرى استحالة بناء المجتمع الإسلامي بدون بناء الأسرة، ويستخلصُ كلَّ هذا من القرآن الكريم، ويوصي الدعاة أن يُولوا جُلّ غاياتهم لبناء المرأة المسلمة، لتنشىء البيتَ المسلم.

قال رحمه الله: «إن الإسلام دين أسرة، ومن ثم يقرر تَبِعَةَ المؤمن في أسرته، وواجبه في بيته، والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة، وعبثاً يحاول الرجل أن ينشىء المجتمع الإسلامي بمجموعةٍ من الرجال، لا بد من النساء في هذا المجتمع، فهن الحارسات على النشء، وهو بذورُ المستقبلِ وثماره..» (في ظلال القرآن ٨/ ١٧٠-١٧١).

وهذا الكلام لا يتجاوز ما قرره الأستاذ البنا في ركن من أركان بيعة الأخ العامل، وهو ركن العمل، إذ اعتبر من البيعة تكوين البيت المسلم، وأن يحمل الأخ أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد

والخدم، وتنشئتهم على مبادىء الإسلام» (رسالة التعاليم ص١٢).

وحين حدثنا الإمام البنا، رحمه الله، عن مهمة الإخوان التفصيلية التي يريد تحقيقها في مصر، ثم في كل بلد عربي، ثم في كل بلد سَعِدَ بالإسلام، ثم في العالم أجمع، حدثنا عن نظام الأسرة، وأعلن أن مِن مهمة الإخوان إقامة نظام للأسرة والبيت، ينشىء الصبيّ المسلم والفتاة المسلمة والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - مجموعة الرسائل ص٣١٠).

التركيز على المعروف الأكبر والمنكر الأكبر

يقصد الأستاذ سيد، بالمعروفِ الأكبر، تأليه الله في الأرض، والمنكر الأكبر، الاعتداء على تأليه الله في الأرض، وتأليه غيره من البشر، ويوم أنْ يسودَ المنكرُ الأكبر، تفشو المنكرات الجزئية في الناس، وتتحول المجتمعات إلى مجتمعاتٍ جاهلية في حكمها وقيمها وعلاقاتها الاجتماعية.

وحين يسود المُنكَرُ الأكبرُ ينبغي على دُعاةِ التغيير أن يُركِّزوا اهتمامهم على محاربة المنكر الأكبر وتغييره، والدعوة إلى المعروف الأكبر وتمكينه.

ويحذر رحمه الله من إنفاق أعمار الدعاة في إنكار المنكرات الجزئية، وإهمال إنكار المنكر الأكبر وتغييره، فإن ذلك إضاعةٌ للجهود، يستحق الرثاء والتحذير.

قال رحمه الله:

«إنه لا جدوى من ضياع الجهد، جهد الخَيِّرين من الصالحين من الناس في مقاومة المنكرات الجزئية الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول، منكر الجرأة على الله، وادعاء خصائص الألوهية، ورفض أُلوهية الله برفض شريعته للحياة، لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات، هي مقتضيات ذلك المنكر وثمراته النكدة بلا

جدال.

على أنه إلامَ نحاكمُ الناسَ في أمرٍ ما يرتكبونه من منكرات؟ بأيِّ ميزانٍ نَزِنُ أعمالهم، لنقول لهم: إن هذا منكر، فاجتنبوه؟ أنت تقول: إن هذا منكر، فيطلع عليك عشرةٌ من هنا وهناك، يقولون لك: كلا! ليس هذا منكراً، لقد كان منكراً في الزمان الخالي! والدنيا تتطور، والمجتمع يتقدم، وتختلف الاعتبارات.

لا بد من الأمرِ بالمعروف الأكبر، والنهي عن المنكر الأكبر، فلتُوفر الجهود، الجهود المبعثرة إذن، ولتُحْشد كلها في وجهة واحدة، لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان.

إن الأستاذ، رحمه الله، يرثي لحالِ أناسٍ ينفقون جهودهم في الفروع، ويهملون الأصول، ويضرب الأمثلة على ضعف جدوى هذا التوجُّه، وأحياناً انعدام تأثيره.

إنها جدوى ضعيفة، أن تَنْهى الناسَ عن شرب الخمر، في نظام يُقِرُّ الخمرَ، وإنها جدوى ضعيفة، أن تنهى عن أكل الحرام مثلاً، في مجتمعٍ يقومُ اقتصادهُ على الربا.

وكذلك تكون الجدوى ضعيفة، حين يُنهى الناسُ عن الفسق في مجتمع، قانونه يبيح الزنا، إذا كان برضى الطرفين، ويبيح العُري والاختلاط وسائر وسائل الزنا ومقدماته، وكذلك تكون الجدوى ضعيفة وعديمة أحياناً، في نهي الناس عن سَبِّ الدين، في مجتمعٍ لا يعترف بسلطان الله، ويعتبر سَبَّ رئيس الدولة جريمةً يعاقب عليها.

ويختم حديثه قائلاً: «ما غَنَاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مثل هذه الأحوال؟ ما غَنَاء النهي عن هذه الكبائر. فضلاً عن أن يكون النهي عن الصغائر، والكبيرة لا نهي عنها، كبيرة الكفر بالله برفض منهجه للحياة.

وينبغي الإشارة إلى أن هذه المنكرات الجزئية متولِّدةٌ من المنكر الأكبر، ويوم أن نُزَيلَ المنكر الأكبر، ستزول هذه المنكرات الجزئية، وينبغي أن نربط إنكار المنكرات الجزئية بالمنكر الأكبر، ونداوم إنكاره وإنفاق جهودنا فيه.

وإن الباحث ليدرك، بسهولة ويُسْرٍ، اهتمام الأستاذ البنا، رحمه الله، وتركيزه على تطبيق الإسلام، وإقامة الدولة الإسلامية، وإنشاء الحكومة الإسلامية، واستخلاص قوة التنفيذ من كل حكومة لا تنفذ أوامر الله، إن هذا من قبيل الاهتمام بالمعروف الأكبر، والنهي عن المنكر الأكبر الذي يتمثل في الحكم بغير ما أنزل الله.

ويدرك بسهولة أيضاً تركيزه في وصيته على الحكومة الإسلامية، من قبيل الأمر بالمعروف الأكبر، حين قال:

«إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، والحكومةُ جزءٌ منه، والحريةُ فريضةٌ من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة! فقولوا: هذا هو الإسلام، ونحن لا نعرف هذه الأقسام، وإن قيل لكم: أنتم دعاة ثورة، فقولوا: نحن دعاة حق وسلام، نعتقده، ونعتز به، فإن ثرتم علينا،

ووقفتم في طريق دعوتنا، فقد أَذِنَ اللهُ أن ندفع عن أنفسنا، وكنتم الثائرين الظالمين» (بين الأمس واليوم، من مجموعة الرسائل ص٢٣١-٢٣٢).

الحكومة والدولة

إن الأستاذ سيد، رحمه الله، يلتقي مع الأستاذ البنا، في ضرورة إقامة منهج الله في الأرض، وتبنّيه من خلال دولة، تنفذ أحكام الشرع، وتحمي حِمى الإسلام ودعاة الإسلام، وتغزو كل جبار عنيد.

لقد حدد الأستاذ البنا أهداف الإخوان المسلمين العامة والخاصة، وذكر أن أهم أهدافنا العامة إقامة الدولة الإسلامية في العالم الإسلامي، بعد تحريره من أعداء الله، بل كان أكثر وضوحا حينما تحدث عن منهاج الإخوان المسلمين، في رسالة المؤتمر الخامس، ووضّح معلماً بارزاً من معالم منهاج الجماعة، وهو الإخوان المسلمون والحكم.

وقال تحت هذا العنوان: «ويتساءل فريق آخر من الناس: هل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة، وأن يطالبوا بالحكم؟.. ثم يجيب: فالإخوان المسلمون يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدي الإسلام الحنيف كما فهموه، وكما أبانوا عن فهمهم هذا في أول هذه الكلمة، وهذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون، يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ، كما يعتمد على الإرشاد.. وقد جعل النبي، ﷺ، الحكم عُرْوَة من عُرى الإسلام. والحكم معدود في كتبنا

الفقهية، من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع، والمصلح الإسلامي إذا رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً، يقرر الأحكام، ويرتل التعاليم، ويفسر الفروع والأصول، وترَك أهلَ التنفيذ يشرّعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره، فإن النتيجة الطبيعية أنّ صوتَ هذا المصلح سيكون صرخة في وادٍ ونفخة في رماد.

قد يكون مفهوماً أنْ يقنعَ المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد، إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاءً لأوامر الله وتنفيذاً لأحكامه.. أما والحالُ كما نرى، التشريع الإسلامي في وادٍ والتشريع الفعلي والتنفيذي في وادٍ آخر، فإنَّ قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية، لا يُكَفِّرُها إلا النهوضُ واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يَدِينُونَ بأحكامِ الإسلام الحنيف.. وإن لم يجدوا من يقوم بهذا العبء، فالحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة؛ لا تنفذ أوامر الله» (المؤتمر الخامس - مجموعة الرسائل ص٢٧١-٢٧٣).

أما الأستاذ سيد قطب، فقد أكثر الحديث عن إقامة الدولة الإسلامية، وأن الإسلام لا يتحقق كما أراده الله إلا إذا هيمن على الحياة بشتى جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والأخلاقية وغيرها.

ويطلق على الدولة الإسلامية أكثر من عبارة، ويتحدث عنها بأكثر من صورة، فأحياناً يصفها بمملكة الله، وأحياناً يحدثنا عن المجتمع

الإسلامي وخصائصه، ويعقد فصلاً في كتابه «معالم في الطريق» لهذا الأمر، وأحياناً يحدثنا عن ذلك تحت عنوان «الحاكمية لله»، وأحياناً يحدثنا عن ذلك تحت عنوان «دار الإسلام»، وأحياناً يحدثنا عنه تحت عنوان «المعروف الأكبر» و«المنكر الأكبر»، وأحياناً تحت عنوان «التجمع الحركي العضوي»، وأحياناً تحت فكرة: الإعلان العام لتحرير الإنسان، وفكرة: الجهاد في سبيل الله.

قال رحمه الله: «ومملكة الله في الأرض، لا تقوم بأن يتولى الحاكميةَ في الأرض رجالٌ بأعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون بأسماء الآلهة، كما كان الحال يعرف باسم الثيوقراطية، أو الحكم الإلهي المقدس، ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مَرَدُّ الأمر إلى الله وفْقَ ما قرره من شريعة مبيّنة» (معالم في الطريق ص٦٨).

وقال رحمه الله: «إن هذا الإعلان العام لتحرير الإنسان، في الأرض، من كل سلطانٍ غير سلطان الله، بإعلان الألوهية لله وحده، وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً، إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً، إعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام، يحكم البشر بشريعة الله» (معالم في الطريق ص٦٨).

وقال رحمه الله: «وعبادة الله وحده، لا تتحقق في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي إلا في ظل النظام الإسلامي، فهو وحده الذي يشرّع الله فيه للعباد كلهم» (معالم في الطربق ص٨٩).

هذا ومما يجدرُ ذِكْرُه أن الإمام حسن البنا يرى أن إقامة الدولة الإسلامية فَرْضٌ على الأمة، وجميع أفرادها آثمون، في نظر الإسلام، إذا لم يقيموا هذه الدولة في العالم العربي والإسلامي وكل أرضٍ أسعدها الله بالإسلام يوماً، وتَغَيَّرتْ هويتها، كالأندلس التي تسمى اليوم إسبانيا.

قال رحمه الله، في الحديث عن الهدف الثاني من أهداف الجماعة العامة: (أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة، تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي، وتعلن مبادئه القويمة، وتُبلّغ دعوته الحكيمة للناس).

وما لَمْ تَقُمْ هذه الدولةُ، فإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها، وقعودهم عن إيجادها. ومن العقوق للإنسانية، في هذه الظروف الحائرة، أن تقوم فيها دولة، تهتف بالمبادىء الظالمة، وتنادي بالدعوات الغاشمة، ولا يكون في الناس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام.

نريد تحقيق هذين الهدفين في وادي النيل، وفي بلاد العروبة، وفي كل أرض أسعدّها الله بعقيدة الإسلام: دين وجنسية وعقيدة، توحّد بين جميع المسلمين. (بين الأمس واليوم - مجموعة الرسائل ص٢٢٥-٢٢٦).

وينكر الإمام البنا، رحمه الله، على الذين يفصلون الإسلام عن السياسة، ويصفهم بأنهم ظَلَمة، أول ما ظلموا أنفسهم، ويستدل بقول الإمام الغزالي: اعلمْ أنَّ الشريعةَ أصلٌ، والمُلكَ حارسٌ، وما

لا أصلَ له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع، ثم يقول: فلا تقوم الدولة إلاّ على أساس الدعوة حتى تكون دولة رسالة، لا تشكيل إدارة، ولا حكومة مادة جامدة صَمَّاء، لا روحَ فيها، كما لا تقوم الدعوة إلا في حماية، تحفظها وتنشرها وتبلِّغها وتقوّيها (مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي - نظام الحكم - مجموعة الرسائل ٣٥٨-٣٥٩).

طرق خاطئة في التغيير

ويحذر الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، الدعاةَ من الوقوع في طُرُقٍ خاطئة، وتخالف منهج التغيير الإسلامي. وهي مزالقُ للحركة الإسلامية، واستدراجٌ تُستدرَجُ بها الحركةُ الإسلامية، وتزيينٌ من أولياء الشيطان لأولياء الرحمن، لينحرفوا بها عن منهجها الإسلامي الأصيل.

لقد قرر، رحمه الله، أن الأصل في الدعوة الإسلامية تغييرية، وأن هذه الدعوة بدأت بالعقيدة، بمنهج الحياة، لا إله إلا الله، الذي نادى به الرسول، ﷺ، وكان يقول للناس: قولوا: لا إله إلا الله، تُفْلِحُوا. وأدرك العرب خطورة هذا المنهج، في شهادة التوحيد، على سلطانهم وسلطاتهم، فقاوموا الرسول، ﷺ، وبخاصة الملوك والأمراء، كما قال له أعرابي سمعها: هذا أمرٌ تكرهه الملوك، وقال له آخر: هذا أمر، ستحاربكَ عليه ملوكُ العرب والعجم.

وحَذَّرَ من الانحراف عن هذا المنهج، منهج البدء بالعقيدة إلى مفاهيم أخرى منها:

١- الحركة القومية: كان من الممكن أن يقوم الرسول، ﷺ، بحركة قومية عربية، تستهدف تجميع القبائل العربية، وتحريرها من

الاستعمار الروماني والاستعمار الفارسي، وينجح في ذلك، ويلتف العرب من حوله، ويسوّدونه بعد ذلك عليهم، ثم بعد ذلك يطبق عليهم الإسلام، بما له من سلطانٍ وقوة ونفوذ، ولو كان ذلك بالإكراه. ولكن الأستاذ سيد يقول: «إن الله لم يُوجِّه الرسول هذا التوجيه، إنما وجهه إلى «لا إله إلا الله»، وتحرير المستضعفين من الطاغوت» سواء أكان طاغوتاً عربياً أم طاغوتاً رومانياً أم فارسياً» (معالم في الطريق ص٢٧).

٢- الحركة الاجتماعية الإصلاحية يقودها الرسول، ﷺ، وينادي بالعدالة الاجتماعية، في مجتمع جاهلي، يعجُّ بالفقراء، وقلة قليلة من الأغنياء، وإن مما لا شك فيه، أن هؤلاء الفقراء المسحوقين المستضعفين، سيلبّون دعوة الإصلاح، ويثورون ضد المستكبرين، وينصرونه، وبعد أنْ يحكمَ يُمْكِنُه أن يطبق الإسلام، وينشر العقيدة. ولكن لم يوجهه الله تبارك وتعالى هذا التوجيه، لأنه عالم أنه ليس هو الطريق (معالم في الطريق ص٢٩).

٣- القيام بحركة أخلاقية: لقد وُجِدَ الرسولُ، ﷺ، في مجتمع غارق في الفساد، حيث الزنا وشربُ الخمر والظلمُ، والأنكحة الفاسدة، كالاستبضاع والرهط والرايات. وكان من اليسير عليه أن يدعو إلى مكارم الأخلاق، ومحاربة هذه الأخلاق الفاسدة ويدعو الناس إلى ذلك، فيستجيبون له، ويسلمون القيادة له، وينصرونه، ثم بعد أن يقضي على المفسدين، يحكم بالشريعة، وينشر العقيدة (معالم في الطريق ص٣٣-٣٤). ولكن الله لم يوجهه لذلك، بل وجهه إلى أن يبدأ بالعقيدة، بتصحيح التصور الاعتقادي عند الناس،

ثم جمعهم على الدعوة، وأعطوه الولاء، وأعلنوا من غيره البراء، وفاصلوه بعد عنت ومشقة، وكان النصر.

انحراف يجب الحذر منه

ويحذر الأستاذ، رحمه الله، من طائفة من المفكِّرين، يتصورون أن الواقع الجاهلي هو الأصل، وهو المقبول، ويجب على الإسلام أن يُطابِقَ نفسَهُ عليه. ولكن الأمر غير ذلك تماماً، إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه» (الظلال ص٢٠١٠).

إن نقطة البدء في المتاهة - كما قلنا - هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية، وأنه سيُجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق، لِتُطَبَّقَ عليها، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين الجاهلية ذاتها.

إن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه، وأن يُمَحْوِرَ ويُطوِّرَ ويغير في أحكامه، ليلاحقَ حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها.. حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام، ومن خروج حياتها جملةً من إطاره (الظلال ص٢٠١١).

ولقد مر معك أخي القارىء الكريم أن الأستاذ البنا، رحمه

الله، يرى بوضوح أن الأنظمة الحاكمة وما يصدر عنها من أنظمة، في سائر شؤونها الداخلية والخارجية والقضاء والجندية والمال والاقتصاد والثقافة والتعليم ونظام الأسرة والبيت، ونظام الفرد في سلوكه الخاص، كُلّها أنظمةٌ تقليدية بحتة، لا تتصل بالإسلام، ولا تستمد منه، ولا تعتمد عليه، فها هو ذا الإمام البنا يوضح رأي الإسلام في هذه الأنظمة، ونرى أن كلام سيد لا يتعدى هذا التوضيح، ولا يتجاوزه. وهما يحذّران من الانخداع بغيره.

لقد مر تحذير سيد، أما البنا فيقول: ماذا بقي بعد هذا، هذه المظاهر الخادعة من المسابح والملابس واللحى والمراسم والطقوس والألفاظ والكلمات، أهذا هو الإسلام الذي أراده الله أن يكون رحمته العظمى؟ (مجموعة الرسائل ٣٠٥).

علاج لهذا الانحراف:

ويقدم الأستاذ سيد العلاج فيقول: «ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية، وأن يقولوا للناس، وللذين يستفتونهم بوجه خاص: تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه، واشهدوا أنْ لا إله إلا الله، بمدلولها الذي لا يقومُ الإيمانُ والإسلام إلا به، وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض، كإفراده بألوهيته في السماء» (في ظلال الظلال ص٢٠١١).

الوضوح في التعريف والتبليغ

ويرى الأستاذ سيد، رحمه الله، أن على دعاة التغيير أن يكونوا واضحين في نقل أفكارهم ورسالتهم، دون تدسس أو تنازل، ومخاطبتهم بأسلوب رقيق شفيق، يُشْعرهم بالحِرْصِ عليهم وعلى إسعادهم، مع هذا الوضوح.

قال رحمه الله: «لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نُرَبِّتَ على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة، سنكونُ معهم صُرحاء غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نَجَسٌ، والله يريد أن يطهركم.. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خَبث، والله يريد أن يطيّبكم، وهذه الحياة التي تَحْيونَها دونٌ، والله يريد أن يرفعكم، هذا الذي انتم فيه شِقْوةٌ وبؤسٌ ونكد، والله يريد أن يُخَفِّفَ عنكم، ويرحمكم، ويسعدكم، والإسلام سيغير تصوراتِكم وأوضاعَكم، ويهديكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى، تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها؟

ويرى الأستاذ، رحمه الله، من الوضوح التزام خطة المنهج القرآني، بالعقيدة، والحركة بها، وتفصيل سبيل المجرمين. فهو يقول:

«إن هذا المنهج لا يُعنَى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل

المؤمنين الصالحين فحَسْب، إنما يُعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبينَ سبيلُ الضالين المجرمين أيضاً، إنَّ استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل، يُرسَم عند مفرق الطريق» (في ظلال القرآن ٧/١١٠٥).

وقد كان الإمام البنا، رحمه الله، واضحاً في دعوته، فحدد أهدافها ووسائلها ومراحلها، وخاطب الناس جميعاً بحقيقة الإسلام، دون مُواربة أو مجاملة أو ملاينة. وأعلن أنه وجماعته ليس مطيةً لحكومةٍ من الحكومات، ولا منفذين لغاية غير غايتهم، وأنهم يعملون على استخلاص الحكم من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام.

المفاصلة والتميز

يكثر سيد، رحمه الله، من الحديث عن تحديد العلاقة مع الجاهلية وأهلها، ويُصِرّ على مفاصلتها والتميز عنها. يعتبر التميز والمفاصلة شرطاً في غَلَبة العُصبة المؤمنة على الأنظمة الجاهلية والحكومات الجاهلية.

فهو يقول: «لا نجاة للعُصْبة المسلمة في كل أرض إلا بأنْ تنفصل هذه العصبة عَقَدياً وشعورياً ومنهجَ حياة عن أهل الجاهلية من قومها، حتى يأذن الله بقيام دار الإسلام» (الظلال ص١١٢٥).

والمفاصلةُ في فترة الضعف تكونُ بهجرِ مجالسِ المنكر، وعدم مجاراة أهل الجاهلية في باطلهم والسكوت عنه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام].

والتميز يكون بمفاصلة الجاهلية عَقَدياً وشعورياً ومنهج حياة، ويكون بالتحلي بالمواقف الإسلامية والقيم الإيمانية، والأخلاق المنبثقة من العقيدة الإسلامية، فهو مُوحِّد بالله معتز به، نظيف اليد والفرج واللسان، لا يشارك أهل الجاهلية في فسقهم، وفجورهم، بل يحارب ذلك.

إن المسلم ولا شك والعُصبة المسلمة تعتقد عقيدة، تناقض عقائد الجاهلية، ولا تلتقي معها، بل تنسف هذه العقائد من جذورها. ومشاعر العصبة المسلمة نابعة من هذه العقيدة التي تعتقدها، ومواقفها كذلك نابعة من عقيدتها في الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، والبراء من كل كافر، وتسعى لتطبيق أحكام الشريعة، وتقويض أحكام الشرائع الأرضية.

ويرى الأستاذ سيد، رحمه الله، أن على العُصْبة المسلمة أن تتميز بعَرْضها لعقيدتها، وأنْ تُفاصِلَ مفاصلةً كاملة واضحة، لا غموض فيها، كما كان رسول الله ﷺ، يَعْرِضُها مُفاصِلاً ومتميِّزاً، إذ أعلن من أول يوم، أنه يريد أن يغير عقائدهم الفاسدة، ويلغي شرائعهم الباطلة.

تأمل قوله: (وفاصَلهم مفاصلةً كاملة، لا غموضَ فيها، ولا تَرَدُّدَ، لأن هذه هي طريقته ولم يقل لهم أبداً: إنه لن يَمسَّ حياتهم وأوضاعهم وتصوراتِهم وقيَمَهم إلا بتعديلات طفيفة أو أنه يشبه نظمهم وأوضاعهم التي ألِفوها، كما يقول بعضنا اليوم للناس، وهو يقدم إليهم الإسلام، مرة تحت عنوان «ديمقراطية الإسلام!» ومرة تحت عنوان «اشتراكية الإسلام!» ومرة بأن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة في عالمهم لا تحتاج في الإسلام إلا لتعديلات طفيفة!! إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات.

كلا، إن الأمر مختلف جداً، والانتقال من هذه الجاهلية التي تعم الأرض إلى الإسلام نِقْلة بعيدة، وصورة الحياة الإسلامية مغايرة

تماماً لصورة الحياة الجاهلية قديماً وحديثاً) (انظر معالم في الطريق ص١٦٩).

ويقول، رحمه الله، أيضاً عن هذا العرض المتميز المفاصل: «لن نتدسس إليهم بالإسلام، ولن نُربِّتَ على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة، سنكون معهم صُرَحاء في غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس، والله يريد أن يطهركم، وهذه الأوضاع التي أنتم فيها خبَث، والله يريد أن يطيّبكم.. والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعَكم وقيَمَكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى، تحتقرون معها أوضاعكم.. (معالم في الطريق ص١٦٨).

والأستاذ، رحمه الله، يتوقع أن تُكلّف المفاصلةُ والتميز العُضْبةَ تضحياتٍ ومَشقّات، وهذه التضحيات تعتبر قليلة، إذا ما قيست بالنتائج المرة، لعدم المفاصلة والتميز، وبقاء الالتباس بين الإسلام والجاهلية، في العرض والمواقف والتدسس والمجاملة، على حساب الحق، والحرمان من النصر في النهاية، إن لم تَتمَّ المفاصلةُ والتميز» (في ظلال القرآن ص١١٢٥-١١٢٦).

ولقد كان الإمام البنا، رحمه الله، متميزاً ومفاصِلاً للذين يحكمون بغير ما أنزل الله، لا يرضى بمنكراتهم، بل ينهاهم عنها، ولا يرضى باستبعادهم لشرع الله، بل يطالبهم بالحكم بالشرع، ولا يعترف بحكمهم، ويسعى جاهداً لتغييرهم، فهو يكرر أكثر من مرة، أنه لا يعترف بأي نظام غير الإسلام، ولا يعترف بأي حكومة، لا تطبق الإسلام.

قال رحمه الله: «ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغَمَنا أهلُ الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام» (رسالة إلى الشباب - من مجموعة الرسائل ص٤١٩).

وقال رحمه الله: «إن صدور الأمة مُحْرَجَةٌ أشدَّ الحرجِ، لشعورها أنها تُحْكَمُ بغير كتاب الله وقانونه وشريعته، وإن الشعوب التي تعوّدت الصبر حيناً، فإن الانفجار طبيعة هذا الصبر، في كثير من الأحيان، وليس يحرج النفس شيء أكثر من الاصطدام بالعقيدة الراسخة، وإن قوانيننا الحالية تنافي الإسلام، وتحطمه في نفوس المؤمنين

إننا أُمة مسلمة، وقد وطّدنا العزم على ألاّ نحكم بغير قانون الله وشريعة القرآن الكريم، وتعاليم محمد، ﷺ، مهما كلّفنا ذلك من ثمن، ومهما بذلنا من تضحيات، وذلك أبسط حقوقنا كأمة، لا تعدل باستقلالها في كل مظاهره شيئاً.

وسيظل الإخوان المسلمون يطالبون بإعادة التشريع الإسلامي، كَرُكْن من أركان حياة مصر الإسلامية، حتى يحقق الله غايتهم، أو يموتوا دونها» (الإسلام هو الحل - الدكتور محمد عبدالله الخطيب ص٥).

عقبات في طريق التغيير

لقد بَيَّنَ الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، طبيعةَ طريق التغيير، في الحركة الإسلامية، والعقبات التي تعترض طريقها، وقد استنبط كل ذلك من كتاب الله، تبارك وتعالى، ومن سنة النبي، ﷺ، وسماها فِتناً، وهي:

- فتنة الأولاد والأموال، إذ يؤدي الحرص عليها إلى ضعف في الجهاد والصّدْع بكلمة الحق، ولهذا حذر الله منها، ونبّه إلى حقيقتها فقال: ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال].

- فتنة الأهل والأقارب حين يكونون على دينٍ غير دينِ الدعاة، فهم يضغطون عليهم، ليرجعوا عن دينهم، كما حاولت أم سعد بن أبي وقاص، أن تضغط عليه، ليترك الإسلام، فأبى، وقال لها: لو أنَّ لكِ مئةَ نفس، خرجتْ واحدةً واحدة، ما تركتُ دينَ محمد.

- إقبال الدنيا على المبطلين، فتكون لهم السيادة، مما يجعل الشيطان يوسوس لضعاف الإيمان بالرِّدة، أو على الأقل بالضعف والتراجع.

- فتنة أصدقاء السوء الذين يحاولون جاهدين التأثير على الدعاة وعلى أخلاقهم ومواقفهم، ولقد أنزل الله في هؤلاء: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا

خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

- فتنة الإغواء والإغراء، أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت]، قد تقفُ العشيرة تُغري ولدَها، وقد يقف الحاكم يغري الدعاة بالمناصب والجاه والسلطان، على أن يتراجع عما هو فيه وعليه، من العمل للإسلام (انظر في ظلال القرآن ٩/١٤٩٧-١٤٩٨، ٢٠/٢٧١٧-٢٧٢٢).

ولقد أكثرَ الأستاذُ، رحمه الله، الحديثَ عن فتنة أعداء الله للمؤمنين إكثارَ القرآنِ عن هذا النوع من الفتنة، فقد شرح آيات الفتنة، وذكر صُوَرها والمواقف المطلوبة فيها، فهي سُنَّةٌ من سنن الله، لا تتوقف، ولا تتخلف، سواء أكانت فتنة في السراء، أم فتنة في الضراء.

ولقد أشار، رحمه الله، بأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، وربما يصبرُ المفتونُ على فتنة الضراء، ولا يصمد على فتنة السراء، ولقد أبدع في الحديث عن هذا، مع ذكر صوَر، شاهدها عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

قال رحمه الله، يُعقِّبُ، بعد شرح الآيات «وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، وما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريفِ الكلِم عن مواضعه، واتباع هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - في وهمهم - عَرَض الحياة الدنيا.

وكم من عالمِ دينٍ، رأيناه يعلمُ حقيقةَ دين الله، ثم يزيغُ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! ويحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته، في الأرض جميعاً.

لقد رأينا من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوقه - سبحانه - مَن ادَّعاهُ فقد ادعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقرَّ له بهذا الحق، وتابعه عليه فقد كفر أيضاً!، ومع ذلك مع علمهِ بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يَدَّعونَ حقَّ التشريع، ويدّعون الألوهية بادّعاء الحق.. ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم المسلمين، ويسمي ما يزاولونه إسلاماً، لا إسلام بعده. ولقد رأيناه مِن هؤلاء مَن يكتب في تحريم الربا كله عاماً، ثم يكتب في حِلِّه كذلك عاماً آخر.

وما تكادُ العينُ تقع على عالم إلا وهذا مثله، فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون الى الأرض.. ولا يلهثون وراء الحُطَام الذي يملكه أصحاب السلطان.

ولقد رأينا هؤلاء في زماننا هذا، مَن يحرِص على ظلم نفسه، أو كمن يَعضُّ بالنواجذ على مكانٍ له في قعر جهنم.

فاللهـم اعصمنا، وثبت أقدامنـا، وأفرغ علينا صبراً، وتَوفَّنا مسلمين» (في ظلال القرآن ص١٣٩٧-١٣٩٩).

أقول: وإنني أعلم وأعرف أناساً قد ثبتوا في سجون الظالمين، ولم يتراجعوا عما هم فيه، ولكنهم انهاروا أمام إغراءات الطواغيت لهم وإغوائهم، فأصبحوا من وزرائهم وسَدَنتهم، وخرجوا يهاجمون إخوانهم الدعاة رفقاءَ الدرب الذين ثبتوا عليه، وكتب أحدهم في الصحف المصرية، بعد أن أصبح وزيراً، في محنة الإخوان، على يد عبدالناصر: «عليٌّ والخوارج» متهماً الإخوان المسلمين بالخوارج وعبدالناصر بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكتب مقالاً تحت عنوان: «عندما تختفي الفتنة وراء الدين» وذكر قصة أبي عامر الراهب الذي جاء يفرّق وحدة المسلمين واصفاً إخوانه بأبي عامر الفاسق، وعبدالناصر بالرسول ﷺ.

وكتب مقالة ثالثة بعنوان «مسجد الضرار» وذكر قصة المنافقين وبناءهـم لمسجـد الضـرار الـذي اتخـذوه لتكفيـر النـاس، وإضـرار المسلمين، ووكراً لمؤامرات المنافقين مع اليهود، ومكانَ رصدٍ لتحركات المسلمين والنيل منهم، ثم بعد ذلك يصف الإخوان المسلمين - إخوانه من قبل - بأنهم مسجد ضرار، وأن الطاغية عبدالناصر ومؤسساته المسجدَ الذي أُسِّسَ على التقوى، ورأينا في زماننا، وسمعنا، وشاهدنا أناساً ينسبون أنفسهم لهذا الدين، ينافقون للطاغوت طمعاً فيما عنده من جاهٍ أو سلطان، ينحلونه بصفات

وألقاب، في الحكمة وسداد الرأي والعلم، ما يدل حالهم على نقيض هذه الأوصاف والألقاب.

عقبة أخرى في طريق التغيير

ويذكر الأستاذ الشهيد، سيد قطب رحمه الله، عقبةً من نوع آخر في طريق التغيير، وهي عقبة فكرية حركية، وجود الغبش على سبيل المؤمنين، وعلى سبيل المجرمين، أو كما عبر عنه الشهيد: عدم استبانة سبيل المؤمنين وطريق المشركين المجرمين، مما يشكل عقبة في طريق التغيير.

قال رحمه الله: (أشَق ما تعانيه الحركات الإسلامية هو الغبش والغموض الذي أحاط بمدلول «لا إله إلا الله» ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر، أشَق ما تعانيه هذه الحركات الإسلامية هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي تتحدد فيه مفارقُ الطريق.

ويستغل أعداء الحركة الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً، حتى يصبحَ الجهرُ بكلمة الفصل تُهمةً، يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير المسلمين، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة، المرجعُ فيها إلى عرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله، ولا إلى قول رسول الله!

هذه هي المشقة الكبرى، وهي كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله، في كل جيل.

يجب أن تبدأ الدعوة باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ويجب ألاّ تأخذ أصحابَ الدعوة إلى الله في قول كلمة الحق والفصل هوادةٌ ولا مداهنةٌ، وألا تأخذهم خشية ولا خوف، وألاّ تُقعِدهم عنها لومة لائم، ولا صيحة صائح، انظروا: إنهم يكفّرون المسلمين.

إن الإسلام ليس بهذا التمييع الذي يظنه المخدوعون، إن الإسلام بيّنٌ والكفر بيّن ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]) (الظلال ٧/١١٠٦-١١٠٧).

إن هذا المنهج لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره، حتى تستبينَ سبيلُ المؤمنين الصالحين فحسب، إنما يُعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه، حتى تستبين سبيل المجرمين الضالين أيضاً.

يؤكد الأستاذ هذا، لأن له أثراً على سير العمل والحركة، في مقاومة الجاهلية والقضاء عليها، فإذا كانت الفكرة واضحة، وسبيلُ المؤمنين واضحة، وسبيلُ المجرمين واضحة في نفوس الدعاة، نشطوا في حركتهم التغييرية.

قال رحمه الله: «إن قوة الاندفاع بالحق، لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحادّه ويحاربه إنما هو على الباطل، وأنه يسلكُ سبيلَ المجرمين.. ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين، أن الذين يعادونهم، إنما

هم المجرمون، عن ثقة، وفي وضوح، وعن يقين» (في ظلال القرآن ٧/ ١١٠٥).

أما الأستاذ البنا، رحمه الله تعالى، فهو رجل قرآني، درس واقع الدعوات الربانية وسيرة الرسل الكرام وخاتمتهم سيد ولد آدم، وفَقِه من ذلك أن العقبات في طريق الدعاة متنوعة ومتعددة، وفي مقدمة هذه العقبات الطواغيتُ وأذنابهم، من الانتهازيين والنفعيين، والغوغاء والجهلة من طغام الناس، وحدّث إخوانه عن هذه العقبات، والدعوةُ في مهدها، وقبل أن تصادفهم هذه العقبات. هادفاً من ذلك تهيئة نفوسهم لذلك، حتى يتجاوزوا هذه العقبات، ولا تؤثر فيهم.

قال رحمه الله: «أُحبُّ أن أصارحكم، أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها، ويدركون مراميها وأهدافها، ستلقى منهم خصومةً شديدة، وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيلَ أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين، ولا زلتم تُمَهِّدون للدعوة، وتَستعدُّون لما تتطلَّبهُ من كفاح وجهاد، سيقف جَهْلُ الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين مَن يستغرب عليكم فَهْمَكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقِدُ عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم، وأن تضع العراقيل في طريقكم.

وسيتذرع الغاصبون بكل طريق، لمناهضتكم، وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة، والأخلاق الضعيفة، والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان، وسيثيرُ الجميعُ حول دعوتكم غُبارَ الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يُلْحِقُوا بها كلَّ نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطاتهم، ومعتدّين بأموالهم ونفوذهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف].

وستدخلون بذلك، ولا شك، في دور التجربة والامتحان، فتُسجنون، وتُعتَقَلون، وتنقلون، وتُشرَّدون، وتصادر مصالحكم، وتعطّل أعمالكم، وتفتّش بيوتكم، وقد يطولُ بكم مدى هذا الامتحان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت].

ولكنَّ الله وعدكم بعد هذا كله نُصْرَةَ المجاهدين، ومَثُوبةَ العاملين المحسنين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾.. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصف]. فهل أنتم مصرون أن تكونوا أنصار الله؟ (رسالة بين الأمس واليوم من مجموعة الرسائل ٢٢٨-٢٣٠).

كيف يتعامل المسلم مع المجتمعات الجاهلية

إن مما يؤسف له أن كثيراً من المتسرّعين قد حمّلوا الأستاذ قطب أموراً، لم يَقُلْها، ولم يفعلها، بل صَرَّحَ بمخالفته لها وتحذيره منها.

ومن هذه الأمور التي تُنسَبُ إليه أنه نادى باعتزال المجتمع، والهروب من المنكرات إلى الكهوف، والانقطاع عن مخالطة الناس وتبليغهم للدعوة، وقد فهموا العُزلةَ الشعورية التي دعا إليها سيد، رحمه الله، فهماً خاطئاً، وأفهموها كذلك للناس فهماً خاطئاً، والحق أن العزلة الشعورية عنده أمرٌ قلبي، يشعر المسلم فيه بالكره عند الاعتداء على محارم الله، ويتمعّرُ وجههُ غضباً لله تعالى، وهو يدل على عدم الرضا بهذه المعاصي، وهو مطلوبٌ من كل مسلم، والحقيقة أن الذي يقرأ «المعالم»، وهو آخر كتابٍ كتبه وفقهه، وفهْمٍ صدر عنه، يجد أنه كان معتدلاً كل الاعتدال في نظرته للمجتمعات وحكمه عليها وموقفه من أهلها ومنها، بل كان مقتدياً بالرسول ﷺ في سلوكه مع أهل مكة وتعامله معهم، من المخالطة والدعوة والتأثير.

ولنتدبر ما يقوله، رحمه الله، وهو يتحدث عن الموقف من الجاهلية والأنظمة الجاهلية والمجتمعات الجاهلية:

«إن وظيفتنا الأولى هي إحلال التصورات الإسلامية والتقاليد الإسلامية في مكان هذه الجاهلية، ولن يتحقق هذا بمجاراة الجاهلية والسير معها خطوات في أول الطريق ، كما يخيل إلى البعض منا، إن هذا معناه إعلان الهزيمة منذ أول الطريق، إن ضغط التصورات الاجتماعية السائدة ، والتقاليد الاجتماعية الشائعة ضغطٌ ساحق عنيف... ولكن لا بد مما ليس منه بد، لا بد من أن نثبُتَ أولاً، ولا بد من أن نستعلي ثانياً، ولا بد أن نُري الجاهلية حقيقةَ الدرك الذي هيَ فيه بالقياس إلى الآفاق العليا المشرقة للحياة الإسلامية التي نريدها.

ولن يكون هذا بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن، وننزوي عنها، وننعزل.. كلا! إنما هي المخالطة مع التميز، والأخذ والعطاء مع الترفع، والصدعُ بالحق في مودة، والاستعلاء بالإيمان في تواضع، والامتلاء، بعد هذا، بالحقيقة الواقعة، وهي أننا نعيش في وسط جاهلية، وأننا أهدَى طريقاً من هذه الجاهلية، وإنها نقلة بعيدة واسعة، هذه النقلة من الجاهلية إلى الإسلام، وإنها هوّة فاصلة، لا يقام فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق» (سيد قطب - معالم في الطريق - طبعة دار الشروق ص١٧٦-١٧٧).

كلمة في هذا المقام

تأمل - أخي القارىء الكريم - هذه العبارات الصادرة عن صاحب القلب الكبير والنفس المؤمنة الراضية المرضية، نفس الشهيد الكبير. إنها ما مِنْ شَكٍّ تدلُّ على فتوحات إلهية، وتدل على دقة في الفهم، وعُمْقٍ في الفقه لكتاب الله، تبارك وتعالى، ولسنة رسول الله، ﷺ، والتحرك بالدعوة الإسلامية في وسط الجاهلية، إنه يرفض أمرين رفضاً قاطعاً:

الأول: مجاراة أهل الجاهلية في جاهليتهم، سواء أكانت في التصور، أم الحكم، أم السلوك، أم القيم، أم العادات، تأمل قوله:

«ولن يكون هذا بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات».

الأمر الثاني: إنه وبنفس القوة يرفض الانعزال والانزواء في الكهوف والمغارات، وتركَ أهل الجاهلية يزاولون منكراتهم.

تأمل قوله، رحمه الله: «كما أنه لن يكون بأن نقاطعها، وننزوي عنها، وننعزل»، ويرفض هذا بحزم، ويعبر عنه بكلمة «كلا».

وهو - رحمه الله - لا يكتفي بالرفض، بل يقدم حلاً عملياً. ويقرر التعامل مع الجاهلية، ولكنه يحدد كيف يتعامل معها، فيقول: «إنما هي المخالطة مع التميز، هذه هي المخالطة الحقة، والتصرف الحسن».

إنه يدعو إلى المخالطة مع بقاء المؤمن متميزاً عن أهل الجاهلية، بالمحافظة على قيمه الإيمانية وأخلاقه الإسلامية وتصوراته العَقَدية، فلا يتنازل عن هذه القيم والمبادىء، أو يتهاون فيها، أو في بعضها، بل يتمسك بها، ويتحلى بها، ويحاول أن يؤثِّرَ على غيره من أهل الجاهلية.

ويذكر أنه يتعامل مع أهل الجاهلية في الأخذ والعطاء، أي يبيع ويشتري، ويعقد سائر أنواع العقود مترفعاً عن عقدٍ أي عقدٍ قد حَرَّمه الله تبارك وتعالى. أي يراعي أحكام الشرع في تعامله، فالترفع هنا ليس على الخلق، وإنما الترفع هنا عن فعل المعاصي وسائر المحظورات.

ونراه كيف يوضح لنا أسلوب الداعية الذي يخاطب أهل الجاهلية، ليردَّهم إلى الإسلام، ويهديَهم إلى دين الله، فيكون واضحاً قوّالاً للحق، لا يخدع أحداً، ولا يدلِّسُ على أحد، بأسلوب ميسر غير معسر، ومبشر غير منفر، إنه يرى أن نقدم دعوتنا لهؤلاء الذين يجهلونها بأسلوب رفيق رقيق، وبعاطفةٍ غامرةٍ بالمودة والإشفاق والمحبة لهم، والحرص على نجاتهم من النار وإنقاذهم منها، تأمل قوله، رحمه الله: «والصدع بالحق في مودّة».

وبعد أن انتبه ونبّه إلى أسلوب الداعية وحاله في مخاطبة المدعو، انتبه ونبّه إلى الداعية المغير بأنه عزيز، وينبغي أن يبقى عزيزاً، بل إن قلبه ونفسه ينبغي أن تملأ بالعزة، وتفيض بها، فلا يشعر بالذل والهوان، بل يشعر بالعزة المانعة، لأنه ينتسب إلى الله ودعوته، وهذا الشعور ينبغي أن يكون ملازماً له. وهو في نفس

الوقت، لا يتكبَّرُ على أحد من الخلق، ولا يحتقر أحداً من الخلق، ولا يحتقر أحداً من الناس بل التواضع لا يفارقُه في كلامه وحركته، فإن هذا الخلق يُحَبِّبُ الناسَ فيه، ويجعلهم يُصْغُونَ لكلامه، ويتأثرون به، ويستجيبون لدعوته، تأمل قوله، رحمه الله: «والاستعلاء بالإيمان في تواضع».

وأقول أيضاً: إن كثيراً من الناس وحتى ممن ينتسبون إلى الدعوة الإسلامية، قد ظلموا هذا الرجل، وقوّلوه ما لم يقل، وآذوه إيذاء شديداً، فجزاهم الله بما يستحقون، إنْ لم يكونوا سليمي النية، وهداهم اللهُ إلى الرشد وتحسين النية وتغيير شرّها إلى أحسنها.

لقد سمعتُ أناساً من الشباب المسلمين، بضاعتهم في الإسلام مُزْجاة، وفهمهم لكتاب الله كليل، وثقافتهم بالدين لا تزيد على النزر القليل، ونُدرةٌ منهم عندهم عِلْمٌ، لكنهم رَضُوا أن يعيشوا في أكناف الطواغيت، وتحت عباءاتهم، وصاروا فقهاء لهم، وهؤلاء الطواغيت أعداء ألدّاء لشهيد الإسلام سيد قطب، رحمه الله تبارك وتعالى.

إن هذه مقولة، يرددها بعض الناس، ولا يدرك معناها، وبعضهم يعرف معناها، وله هدف من تردادها، وهو تنفير الناس والقُرَّاء من فقه سيد وعلمه، وذلك باتهامه، وإشاعة تُهَم باطلة عنه، إن هذه المقولة مفادها: أن ما كتبه سيد في «الظلال» أو كتبه الصادرة بعد محنته عبارة عن أدب سجون، وأن الذي دفعه إلى هذه الشدة - كما يزعمون - وهذه الحِدَّة، أنه عاش حياةً قاسية في السجن هو وإخوته، ورأوا من صنوف التعذيب والعنت والمشقة ما تَشيبُ لهوله

الولدان، فدفعه ذلك إلى ما كتبه. ولو عاش في ظروف عادية، ولم يتعرض لحياة السجون والتعذيب، لقال في المجتمع والحكام كلاماً غير ما قاله في «الظلال» وكتبه الأخرى.

وهذا - لعمر الحق - كلامٌ في غاية الخطورة، وهو اتهامٌ للرجل في دينه وتقواه، لأن الذي يفعل هذا، يقول في دين الله بهواه، ومَنْ قال في دين الله بهواه، فقد وقع في غضبِ الله وسخطه، واستحق العقوبة العظيمة في الآخرة، لأن الأصل في المسلم أن يقول في دين الله قولاً عدلاً، وأن ينطق بالحق، ولا يؤثِّرَ عليه غضبٌ ولا رضا، فكيف بالعالم المسلم، فالأصل حتى يؤخذ عن العالم، أن يكون مأموناً وقت الرضا والغضب، إذا تكلم عن دين الله، فالعالم يوقِّع عن الله، فلا يفتري عليه، ولا يُبدِّلُ، ولا يغير، مهما كانت الظروف.

ورحمَ اللهُ ابنَ قيم الجوزية حين قال: «إذا كان التوقيع عن الأمراء والملوك من الأمور السَّنيّات، فليعلم المفتي أنه يوقع عن رب الأرض والسموات».

إذا كان الحديث عن إرادة حاكم كملكٍ وأمير مسؤوليةً كبيرة وخطيرة، فالحديث عن حكم اللهِ أخطر، ولا يعقل أحد من البشر أن أحداً يفتري على هذه الإرادة وعنده أثارة من دينٍ وإيمان.

وهذا معنى العبارة المكررة: «أدب السجون» ومؤداها أنها طعن بدين الشهيد، فإذا كان أحدهم يدرك هذا المعنى، وكرر العبارة، دون أن يتوقف عند معناها، فليقلع عن ذلك، وليستغفر الله - تبارك

وتعالى - وليَكُفّ عن هذا.

وإن العبارات التي عَقّبنا عليها للشهيد، تدل على أن هذا الرجل كان مأموناً في دينه، وعلى دينه، وقتَ الرضا والغضب، فلا حقدَ ولا استكبارَ ولا هروب من ساحات الدعوة. ولا نكوص عن المبدأ.

إن القارىء لا يساوره أدنى شك، أن الشهيد الحي سيد قطب، وهو يكتب هذه الكلمات، كان يَتمتَّعُ بنفس راضية مرضية، ليست ساخطة متبرمة، تنفثُ سموم حقدها، ويحلوَ لي أن أعيش والقارىء مع هذه الجمل للشهيد التي تقطر رحمة وتواضعاً:

«إنما هي المخالطة مع التميز، والأخذُ والعطاء مع الترفُّع، والصَّدْعُ بالحق في مودة، والاستعلاءُ بالإيمان في تواضع، والابتلاء بعد هذا بالحقيقة الواقعة أننا نعيشُ في وسط جاهلية، وأننا أهدى طريقاً من هذه الجاهلية».

بشارة وأمل في النصر والتمكين

لقد رأى، رحمه الله، بكياسة الرجل المؤمن، أن الحضارة الغربية قد أفلست، وأن الإسلام قادم، لا محالة، ولقد استشرف المستقبل ففقِه من كتابِ الله ومن دراسة أوضاع البشرية اليوم وما يطرأ عليها من تغير وإقبال على الله تفسيراً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

قال رحمه الله: «والشطر الأخير من الوعد، قد بانت طلائعه، منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ، فموكبُ الإيمان يتجمع من فجاج شتى، وعن طريق العلم المادي وحده يَفِد كثيرون، وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد، ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضي، ولكن هذه الموجة تنحسر الآن، تنحسر- على الرغم من جميع الظواهر المخالفة - وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذي نحنُ فيه حتى يتمَّ انحسارها، ويكاد إن شاء الله، وحتى يحق وعد الله الذي لا بد أن يكون، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]. وهو الذي أعطى وعده عن علم وعن شهود»(في ظلال القرآن ٢٤/ ٣١٣١).

أخي القارىء الكريم!

هل تعلم أن الأستاذ الشهيد قد كتب هذا الكلام النفيس الذي

تحقق قسم كبير منه، في وقت، أجمع السياسيون والكتاب وغيرهم أن معسكر الإلحاد في عنفوان قوته، وأن الحركة الإسلامية تعيش في محنة عامة، وكتب هذا وهو في أتون المحنة، محنة عُلّقت فيها رؤوسُ القادة من الجماعة على أعواد المشانق، ولم يأت بعدُ وقتُ استشهاده، كتب هذا كما يقول، والظواهرُ جميعها تخالفُ ما استخلصه واستنتجه، إنها فراسةُ المؤمن التي تتجاوز الظواهر، إنه ينظرُ بنور الله.

حقاً إنها بشارة، نرجو أن يتحقق الشطرُ الثاني منها، بعد أن تحقق الشطر الأول، اندحار الشِّرْك والشيوعية، وانحسار موجة الشرك، وإقبال الناس على الإسلام، على اختلاف الألوان والأجناس والبلدان، نرجو بعد هذا أن يتحقق وعدُ الله في النصر، والتمكين للحركة الإسلامية، حيث يسودُ منهجُ الله، وترفرف راية التوحيد، وتنخذل راية الشرك، وحينئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله، ألا إنَّ نصرَ الله قريب.

هذا هو الأمل، يبثه الشهيد سيد، رحمه الله، في النفوس، الأمل في النصر، فماذا نجد عند الإمام الشهيد حسن البنا في هذا الشأن.

لقد خاطب البنا الإخوان المسلمين، فحدَّدَ مهمتهم ومنزلتهم، وأمرَهم بمواصلة جهودهم، والله معهم، ولن يَتِرَهُمْ أعمالَهم، ثم قال:

(فمَنْ تبعنا الآن، فقد فاز بالسبق، ومن تقاعد عنا من المخلصين اليوم، فسيلحقُ بنا غداً، وللسابقِ عليه الفضل، ومَنْ رغب عن

دعوتنا، زهادةً أو سخريةً بها، أو استصغاراً لها، أو يأساً من انتصارها، فستثبت له الأيام عظيم خطئه، وسيقذف الله بحقنا على باطله، فيدمغه، فإذا هو زاهق) (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - مجموعة الرسائل ص٣٢١).

المستقبل للإسلام

إننا إذا تأملنا ما كتبه الأستاذ حسن البنا والأستاذ سيد قطب، رحمهما الله تعالى، عن أوضاع العالم اليوم، والحياة التي يحياها الإنسان كإنسان، على وجه الكرة الأرضية، نجد اتفاقاً تاماً في نظرة الشهيدين، رحمهما الله تعالى، اتفاقاً في تشخيص الداء، واتفاقاً في الدواء.

أما الأستاذ البنا، فيذهب إلى أن الحضارة الغربية حضارة مادية، أغرقت الإنسانَ في الشهواتِ، وأبعدته عن القيم الإيمانية والأخلاق الربانية الحميدة، وأن أهلها الآن يكتوون بنارها، والعالم الإسلامي اليوم يكتوي كذلك بنارها، لأنه يسير في فَلَك الغرب المادي الغارق في مدنية المادة وحضارة المتعِ والشهوات، ويحدد الموقف منها، وأنه سيقضي عليها في مصر والعالم الإسلامي، وسيغزوها في عقر دارها، ويقضي عليها.

قال رحمه الله: (ما مهمتنا إذن نحن الإخوان المسلمين؟ ويجيب على ذلك فيقول: مهمتنا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية، من مدنية المادة، وحضارة المتَع والشهوات التي جرَفت الشعوب الإسلامية، فأبعدتها عن زعامة النبي، ﷺ، وهداية القرآن، وحرمت العالم من أنوار هَدْيها، وأخَّرَت تقدّمه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا، ولسنا واقفين عند هذا الحد،

بل سنلاحقها في أرضها، وسنغزوها في عقر دارها، حتى يهتف العالَمُ كله باسم النبي، ﷺ، وتُوقِنَ الدنيا كلها بتعاليم القرآن، وينتشر ظل الإسلام الوارف على الأرض، وحينئذ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم].

هذه مهمتنا نحن الإخوانَ المسلمين إجمالاً)، (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - مجموعة الرسائل ٣٠٨-٣٠٩).

وأما الشهيد سيد، رحمه الله، فنجده يحدثنا طويلاً عن الحضارة الغربية، وأنها تقوم على الجنس والشهوة بلا حدود. كما تقوم على العلمانية. وكتب كتابه «المستقبل لهذا الدين» وهو دراسةٌ لمشاكل الحياة الإنسانية وصيحات الخطر التي أطلقها أهلها الماديون مثل ألكسس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» وجون فوستردالاس مُصَمِّم السياسة الأمريكية المعادية للإسلام، فقد كتب الأول في كتابه السابق أن الحضارة العصرية لا تلائم مَنْ وضعها. لأنها تَوَلَّدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، ويختم كلامه بقوله: وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

أما وزير الخارجية الأمريكي جون فوستردالاس، فإنه ذهب إلى ما ذهب إليه كاريل من أن الاختراعات العلمية لم تسعد الإنسان، ولم تنقذ البشرية من مشاكلها النفسية وشيوع عدم الاطمئنان

والاستقرار وفقدان الأمن والسلام. وهما لا يُشْتَرَيان بالمال.

ثم بعد ذلك ينبري الأستاذ سيد، رحمه الله، إلى الاستنتاج، بعد إفلاس الغرب المادي وحضارته، وفشلِ الرجل الأبيض في إسعاد نفسه، بله إسعاد غيره، ويقرر أن المستقبل لهذا الدين، المستقبل لهذا الإسلام. لأنه وحده القادر على إنقاذ البشرية مما يُحْدِقُ بها من أخطارٍ ماحقة. لأنه يملك نظاماً شاملاً وعاماً ينظم جميع شؤون الحياة الإنسانية عقدية أو تشريعية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها.

والذي يقوم بهذا طلائع البعث الإسلامي، ولقد بَيَّنَ بشاعةَ الجريمة التي يرتكبها أعداء البعث الإسلامي حين يعتدون على طلائعه بحق الإنسانية كإنسانية، وبحق البشر.

ولكنه، رحمه الله، يبعث الأمل في النفوس وفي المستقبل، وأن المستقبل للإسلام، على الرغم من بشاعة الجرائم المرتكبة ضد دعاته، لقد أعلن الثقة المطلقة بهذا الدين، ووجّه طلائع البعث الإسلامي إلى أنَّ الحربَ المشبوبة على الإسلام لا تُفقدنا الثقةَ المطلقة في أن المستقبل لهذا الدين. فقد صمد الإسلام لأقسى من هذه الضربات التي تُوَجَّهُ إليه في القرن العشرين، وخرج منتصراً على وحشية التتار وحقد الصليبيين ووحشيتهم، على أيدي العلماء والقادة أمثال صلاح الدين الأيوبي، وابن تيمية الذي جمع الله له جهادَ اللسان والسنان.

وإن طلائع البعث الإسلامي لم تستسلم وهي تخوض في كل

أنحاء العالم حرباً شرسة، ستكون العاقبة لها، بإذن الله. ويؤكد هذا رحمه الله بقوله:

ولكن الذي لا شك فيه، على الرغم من ذلك كله، هو أن المستقبل لهذا الدين. لطبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ولحاجة البشرية إليه. إن الذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل، وليس هو قوة الضربات التي تُكال للإسلام، إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ومدى الصمود للضربات.

ويضيف رحمه الله: إننا لسنا وحدنا، إن رصيدَ الفطرة معنا، وهو رصيد هائل ضخم.. ومتى تعارضت الفطرة مع الحضارة. فلا بد أن يكتب النصر للفطرة.. قَصُرَ الصراعُ أم طال.. والله معنا.. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] (انظر - المستقبل لهذا الدين ٨٤-١٤٠).

هذا هو سيد، يبعث الأمل في النفوس بأن النصر للإسلام والمسلمين، في خاتمة المطاف، ونجد الإمام البنا أوضح منه في هذا الأمر. فإنه قد عقد العزم على هذا، وإن الأمل المفعم بالإيمان هو الذي بعثه على هذا العزم والتصميم والعمل لإقامة الحكم الإسلامي، وغزو الحضارة المادية في عقر دارها.

فبعد أن حدثنا، رحمه الله، عن غاية الإخوان ومنهاجهم، حدثنا عن عُدَّتهم، فأعلن أن الإيمان أول عُدتهم، ثم الجهاد، ثم الثقة بنصر الله. وفي النهاية نصر الله الموعود، وخاطب اليائسين، فقال:

«سيقول الذين يسمعون هذا: إنه الخيالُ بعينهِ، وإنه الوهمُ، وإنه

الغرورُ، وأنّى لهؤلاء الذين لا يملكون إلا الإيمان والجهاد أن يقاوموا هذه القوى المتألبة المجتمعة الأسلحة المتنوعة المختلفة، وأن يصلوا إلى حقهم، وهم بين ذراعي وجبهة الأسد.

سيقول كثيرون هذا، ولعلَّ لهم بعض العذر، فهم قد يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من صلتهم بالقويّ القادر. وأما نحن، فنقول: إنها الحقيقة التي نؤمن بها، ونعمل لها.

ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (١٠٤) ﴾ [النساء].

ثم يوضح كيف نصرَ الله الصحابة، على قلة عَددهم وعدتهم، وأن الذي نصرهم قادرٌ على نصر الإمام البنا وجماعته، ويؤكد هذا فيقول:

سنعتَدّ أيها الناس بهذه النصرة، وسننتصر كما انتصر أسلافنا بالأمس القريب، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، وسيتحقق لنا وعدُ الله، تبارك وتعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (٦) ﴾ [القصص]. ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم]» (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - مجموعة الرسائل ٣١٥-٣١٧).

الخاتمة

نَحمدُكَ اللهمَّ على أفضالك، ونشكرك على جزيل عطائك ونعمائك، وتلهج ألسنتنا وقلوبنا بتمجيدك والثناء عليك ثناءً يليق بجلالك، ويوازي نعمك. حمداً لك في عليائك على ما أقدرتنا ومنحتنا الوقت والبركة فيه، وأعنتنا على الفراغ من كتابة هذه الأوراق.

لقد مَنَّ الله علينا جَلَّتْ قدرته، وعَزَّتْ عظمتهُ بأنْ يَسَّر لنا أن نعيش أياماً كثيرة وساعات عديدة مع كتب الشهيدين الجليلين الإمام المرشد حسن البنا والأستاذ سيد قطب، رحمهما الله تعالى، لقد عشنا مع رسائل البنا، رحمه الله، وهي جامعة في الفكر والحركة والتنظيم والفقه الجهادي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي على إيجازها، فهي مَعين ثَرٌّ، لا ينضب فيما حوت من قواعد وأصول وكليات وجزئيات، في شتى الموضوعات.

وعشنا مع الأستاذ سيد، رحمه الله، في «ظلاله» و«معالمه»، وكتابيه: «المستقبل لهذا الدين»، و«هذا الدين». وكان فيها واضحاً في عرضه، سهلاً في أسلوبه، بليغاً يبلغ بالقارىء ما يريد، يأخذ بمجامع القلوب. فهو الأديبُ البارع، والناقد المبدع، والعالم الرباني الذي عاش مع كتاب الله في محنته، فثبته على الحق.

لعل القارىء الكريم أدرك ما حرصنا عليه في هذا الكتاب، وهو أننا دأبنا على الإقلال من كلامنا، وكنا في الوقت ذاته شديدي الحرص على الإكثار من الاستدلال بأقوال الشهيدين، في كل موضوع من الموضوعات، هادفين من وراء ذلك أن نترك الاستنتاج للقارىء والموازنة بين الأقوال، ونكتفي في الغالب بالإشارة إلى موطن الاتفاق في هذه الموضوعات.

لقد رغبنا في أن يتأمل القارىء هذه النصوص المنقولة من بطون هذه الكتب، وأن يستخلص ما يستخلصه، ويتوصل إلى ما يتوصل إليه من نتائج.

أجل لقد تجولنا في بساتين هذه الكتب، واستمتعنا بعبق عبيرها، وجميل لونها، وبهجة خضرتها، وما فيها من غذاء للأرواح والأبدان، فقطفنا باقات من ورودها وأزاهيرها، وأردنا أن يشاركنا الأخ القارىء الحبيب الاستمتاع بالشذى الفواح والمنظر الخلاب فيفيد ويستفيد.

وختاماً نرجو أن يكون القارىء الكريم قد انتهى إلى ما انتهينا إليه إلى أن الشهيدين جزاهما الله عنا وعن المسلمين خيراً، قد كانا يَصْدُران من مشكاةٍ واحدة، كتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، وأنهما قد حددا بوضوح، واتفقا بشكل أوضح على مفردات منهج التغيير وأفكاره، من حيث الموقف من الأنظمة المعاصرة، والحكم عليها، والعمل على تغييرها، ووسائل ذلك، وجيل التغيير وأهداف التغيير، واستخدام القوة في التغيير، وهل ذلك مقيّد أم مطلق؟ ومراحل التغيير، والعقبات في طريق التغيير، واجتماعهما على أن التغيير

قادم لا محالة، وأن المستقبل للإسلام، على الرغم من يأس اليائسين وتثبيط المثبطين، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء].

كتب للمؤلف

١- النظام السياسي في الإسلام.
٢- القضاء في الإسلام.
٣- الأمر بالمعزوف والنهي عن المنكر.
٤- أسس في التصور الإسلامي.
٥- حكم الشورى ونتيجتها في الإسلام.
٦- الشورى وقضايا الاجتهاد الجماعي.
٧- القضاء بشاهد ويمين.
٨- أحكام الذبائح في الإسلام.
٩- الأيمان والنذور.
١٠- حكم الذبائح المستوردة إلى بلاد المسلمين.
١١- الإسراء والمعراج.
١٢- الهجرة النبوية.
١٣- غزوة بدر.
١٤- غزوة أحد.
١٥- غزوة الأحزاب.
١٦- غزوة الحديبية.
١٧- غزوة الفتح الأعظم.
١٨- غزوة حنين.
١٩- الصراع مع اليهود الجزء الأول.
٢٠- الصراع مع اليهود الجزء الثاني.

٢١- الصراع مع اليهود الجزء الثالث.
٢٢- الصراع مع الصليبيين.
٢٣- ثلة من الأولين.
٢٤- تفسير سورة الأنفال.
٢٥- تفسير سورة الحجرات.
٢٦- شهداء فلسطين.
٢٧- القاضي أبو يعلى الفراء وكتابه الأحكام السلطانية.
٢٨- أسس في الدعوة ووسائل نشرها.
٢٩- إرشادات لتحسين خطبة الجمعة.
٣٠- مؤتمر مدريد في الشرع والعقل.
٣١- المدرسة النبوية العسكرية.
٣٢- فقه الإمام البخاري.
٣٣- منهج الحركة الإسلامية في التغيير.
٣٤- المشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية.
٣٥- الابتلاء والمحن في الدعوات.
٣٦- إنفاق الزكاة في المصالح العامة.
٣٧- التعددية السياسية في ظل الدولة الإسلامية.
٣٨- هذا هو الحل.
٣٩- مفاهيم إسلامية.
٤٠- إن فرعون علا في الأرض.
٤١- فقه السيرة.
٤٢- أصول الفقه (١).
٤٣- أصول الفقه (٢).
٤٤- مفهوم الجهاد في الإسلام.
٤٥- السيرة النبوية دراسة تحليلية.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧
الحكم على الأنظمة المعاصرة	١٣
الموقف من الأنظمة الجاهلية والحكومات الجاهلية	١٦
تغيير الأنظمة الجاهلية	١٩
استخدام القوة	٢٧
وسيلة التغيير	٣٢
مراحل التغيير	٣٦
جيل التغيير	٣٨
أهمية بناء الأسرة في التغيير	٤٣
التركيز على المعروف الأكبر والمنكر الأكبر	٤٥
الحكومة والدولة عند الإمامين	٤٩
طرق خاطئة في التغيير	٥٤
انحراف يجب الحذر منه	٥٧
علاج لهذا الانحراف	٥٨
الوضوح في التعريف والتبليغ	٥٩
المفاصلة والتميز	٦١
عقبات في طريق التغيير	٦٥

الموضوع رقم الصفحة

عقبات أخرى في طريق التغيير ٧٠
كيف يتعامل المسلم مع المجتمعات الجاهلية ٧٤
كلمة في هذا المقام ٧٦
بشارة وأمل في النصر والتمكين ٨١
المستقبل للإسلام ٨٤
الخاتمة ٨٩
كتب للمؤلف ٩٣
الفهرس ٩٧

مطابع الصقر
ت: ٤١٢٥٥٥ / ٠١٥ - ٤١٢٧٧٧ / ٠١٥